عزيز نيسين



الحمار الميت

ترجمة: عبد القادر عبد اللي


Borlänge
Bibliotek

الحمار الميت

عزيز نيسين

الحمار الميت

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

الحمار الميت عزيز نيسين
الطبعة الثانية ١٩٩٧

اللاذقية -سوريا -ص.ب: ٨٢٢
التوزيع: الأهالي للطباعة والنشر
دمشق -ص.ب: ٩٥٠٣ -سوريا
ها: ٢٢١٣٩٦٢ - فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

الرسائل التي كتبها (الحمار الميت) الذي لا يخاف الذئب، من الدار الآخرة إلى صديقته ذبابة الحمار في الحياة.

الرسالة الأولى

(الحمار الميت يحكي كيف مات)

ذبابة الحمار الحبيبة

ستدهشين حتماً عندما ستستلمين هذه الرسالة. ستهلوسين قائلة: "علمنا أنه شبع موتاً منذ زمن، فمن أي اسطبل خرج لنا مجدداً". لا تنفعلي. أنا أكتب لك من المقبرة. هنا، كل الذين كانوا أحياءً في يوم ما من كبار ومشهورين وأعيان. إنه الوقت المناسب لكي تلطمي وتصرخي "آه لم نعرف قيمته في حياته. الآن فقط فهمت معنى المثل القائل "أعمى وعيونه لوزية" من خلال معرفتي بالذين لم نفهمهم في دنيانا الكذابة قبل أن يأتوا إلى مثواهم الأخير. بينما كنت أعمى عما هو أمام عيني سمعت عبارات المديح بعد موتي "عيون كحلية". "نظرته مؤثرة".

لا تحزني مطلقاً مما تعانيه من ضائقة في الحياة. عندما ستموتين ستكتب الجرائد "فقيدة كبيرة لا يُملأ مكانها". الأنانيون يملؤون أمكنة المحرومين والفقراء الأحياء ولا يتركون لنا حتى مكاننا في الحياة. ولا أدري كيف لا يستطيعون - ولا بأية وسيلة - تعبئة مكاننا بعد موتنا فيتركونه فارغاً!!

ستعيشين في قلوب الأحياء بعد موتك، ولكن عندها سيكون مكانك جهنم أيضاً. لقد حكى لي أحد الأخوة الحمير ممن لا مكان لهم في الحياة و لم يستطع أحد ملء الفراغ مكانهم بعد موتهم، هذه الحادثة التي وقعت له: "يوم شمسه حارةً جداً حزموا ظهره بحمل ثقيل، صادف الحمار الماشي (طحاً ونحاً) تحت وطأة حمله الثقيل طريقاً ساحلياً، وبينما كان يمر أمام (شاليه) وفي يده

كأس مشروب من ذاك المتعرق خارجه لكثرة الثلج داخله... يرتشف مشروبه وينفث دخان سيجارته. نظر الحمار من تحت الحمل وهو يكاد يغمى عليه لشدة الحر إلى الحمار الذي كان يتناول شرابه أمام الريح وقال:

- لِمَ نفختك هذه. كل ما هنالك أنك تعيش وأنا أيضاً أعيش.

قال حمار الشرفة للحمار الذي يطح وينح تحت وطأة حمله:

- نعم أنت تعيش وأنا أعيش ولكن أنت هكذا... وأنا هكذا!!!

كل الأعمال في المقبرة تجري بسرعة وعلى ما يرام ذلك لعدم وجود أي دائرة حكومية أو موظف. وليست هناك مؤسسات وجدت خصيصاً لإخراج الناس عن طورهم - البريد مثلاً - إذا أراد أحدنا إرسال رسالة من هنا إلى أحد الأحياء. يتولد كل ما يريد كتابته في عقل المرسل إليه كما تتولد هذه الرسالة في عقلك الآن.

ذبابة الحمار الحبيبة سأشرح لك في رسالتي هذه كيف مت. لعله يفيدك في زمن تكونين فيه محاصرة إن لم يكن باستطاعتك الحياة.

إنني مُت، أي أنني ما بعد وجودي. لا كقول الذين يبتلعون العصير المجمد (أوخ، مُت) قَولي أنا مت ليس كذلك. مت بجد.

ستقولين "ليس في الموت مزاحٌ" ولكن عندما تمر حياتنا مهزلة فموتنا يصبح قبيحاً كل القبح.

اثنان سيبكيان من بعدي: أولهما واصل وثانيهما وداد[*]. أنا دائن للأول بخمسمائة ليرة وللثاني بمائة ليرة فقط. من يعلم مقدار حزنهما لموتي قبل أن أدفع ديني.

كنت كلما نظرت في وجهيهما أُفَضّل الموت سلفاً (أي دفعة واحدة) عليه تقسيطاً. (أي أموت وأحيا وأموت وأحيا.).

---

[*] اسم وداد يستعمل للذكور. (م)

في البداية خططتُ للموت في البيت، فكرتُ كيف سيرى المارة سفالتي التي وصلت حتى الركب. سأصبح سخرية للناس، لذلك عزفت عن الموت في البيت، لم أستطع العيش في المصيف صيفاً واحداً ولا في المشتى شتاءً واحداً. لكي أعيش في مصيف لم أستطع أن أعيش فيه وأنا حي، سحبت نفسي مثل القطط الأصيلة التي لا تريد أحداً أن يرى جثتها، وذهبت إلى مكان بعيد مكشوف وجميل.

قبل أن أموت سألت نفسي:

ما هي رغبتك الأخيرة؟ قل لنر!

قال صوتٌ من داخلي:

-الحياة!!!

قلت:

تجاوز هذه. لنسألك ثانية "ما هي رغبتك الأخيرة" فهذا السؤال يُسأل أصولاً للذين سينفذ فيهم حكم الإعدام. فإذا كان لك طلب ناتج عن تفكير منطقي فقله.

صرخ الصوت عالياً:

- الحياة!..

طلبك هذا يعني "طلب تحكُّم طبقة في بقية الطبقات المجتمع" ومسجل في القانون على أنه من أكبر المعاصي.

- عِشتَ كل هذه السنين كذبابة في ذيل حصان. ماذا رأيت وماذا وجدت في هذه الدنيا...آ.. قواد!..

أغمضت عيني وانسحبت من "دار الفناء" إلى "دار البقاء". فتمددت عل طولي في ساقية على حافة الطريق. رفسني أحد المارة رفسة، رفستين. عندما لم يلحظ مني أية حركة فتشني!! وبينما كان يبحث في جيوبي الداخلية تدغدغت

وكادت الضحكة تخرج من فمي، ولأنني ميت عليّ ألا أخرج أي صوت. لم يجد الرجل أية نقود في جيوبي، أو أي شيء مفيد، ساعة، قلم حبر، خاتم، موسى، قداحة،... تركني وبصق على وجهي. انه رجل صاحب ضمير كان بإمكانه أن يعمل شيئاً آخر غير البصاق.

نادى أحد المارة:

-في الطريق ميت لا يعد من الميتين!!..

أخبر الشرطة. بالرغم من أن الرجل الذي فتش جيوبي قال للشرطيّ:

- لا يوجد معه شيء. من المستحيل معرفة شخصيته.

هيه... هيه... أنا بلحظة أعرف من هو.

هل هذا صحيح بالرغم من عدم حمله الهوية؟!!

ضرب الشرطي بيده على رقمه المثبت في ياقته وعلى مسدسه، وقال:

- نحن لا نحمل هذه على الفاضي يا حباب. نحن نخرج من الريح الماء ومن السيل الغذاء.

- ولكن كيف؟!

أجعله يتكلم!!

- ميت... وهل يتكلم الميت؟!!

- هذا سر المهنة... كل شخص ممكن أن يجعل الحي يتكلم... ولكني أجعل الميت يتكلم، وسترى أننا لا نجعل الأموات فقط يتكلمون، بل حتى شواهد القبور نجعلها تتكلم حتى تظن أنها تنطق بالغزل في جلسة صفاء على شاطئ البوسفور...

- بعد بحث وتمحيص وتمشيط وجودوا في جيوبي أشعار الحب التي كتبتها للفتاة الفاتحية[1] أم عروق الرقبة البارزة. ولمعلمتي البورصية[2]. قال الشرطي عندما وجد الأشعار:

- الرجل شاعر. إذا بدأ أحد الشعراء بالكلام فلا يستطيع إسكاته شرطة سبع دول.

سأل أحد فاعلي الخير الشرطي عن سبب أخذ الشعر وتركي في الخندق. قال الشرطي:

لا يُستطاع الخروج من داخل هذا الذي يسمى شعراً. ولأن هذا الشعر الحديث شيء (ملخبط) مثل الشيفرة فلا يفهمه قارئ ولا مستمع. لذا فشرطة الأمن السياسي، هم أكثر قرّاء هذا النوع من الشعر... سآخذ هذه الأشعار إلى الشعبة السياسية ليدققوها لعلهم يجدون فيها مخالفة!!!

ذهبوا وبقيت في الخندق.

هكذا يا ذبابة الحمار الحبيبة، هكذا مُت. ولكن لم أنته عند هذا. وهل تظنين أن الموت عمل سهل. أيـ...ن! صدقي عندما تموتين في يوم ما، إذ كنتِ ندمتِ على ولادتك مرة، ستندمين على موتك ألف مرة.

لقد أتينا إلى هذه الدنيا في زمان ومكان، إذا أردنا أن نعيش لا يُعاش وإذا أردنا الموت لا نستطيع. لا يدعونك تموتين أو تعيشين... سأحكي لك في الرسالة القادمة ما جرى لي بعد موتي. أبلغي سلامي لمن يسأل عني. قلت من يسأل عني، تذكرت، دخيل عيونك احذري أن تقولي "للديّانة" الذين لهم دين بذمتي عن مكاني. بينهم واحد - أنت لا تعرفينه - لا يتوانى عن عمل شيء من أجل

---

[1] نسبة إلى منطقة الفاتح في اسطنبول. (م)

[2] نسبة إلى محافظة بورصة على بحر مرمرة. (م)

أن يدفّعني نقوده. يمـوت ويتبعـني إلى هنـا، أي إلى مكـان اسـتراحتي الأبديـة. لا تعطي عنواني لأحد، خشية أن يحدث شيء من هذا القبيل. أقبل إبرتك السامة.

المخلص لك

حمار ميت

الرسالة الثانية

(الحمار الميت يحكي كيف نُقل في سيارة الإسعاف)

ذبابة الحمار العزيزة والحبيبة

شرحت لك في رسالتي السابقة كيف مت، الأضح، كيف تمددت في ساقية على طرف الطريق متماوتاً... الصعوبة الحقيقية بدأت فيما بعد. احتمع حولي كل من كان ماراً. صاح أحد المواطنين المتكومين فوق رأسي:

- أي جنس بشري نحن ياهوه...ـ؟ـ يموت الرجل أمام أعيننا ولا تهتز لأحدنا شعرة.

قال آخر:

- صحيح. أكون سافلاً إذ كان قد بقي في هذا الوطن صاحب شيء من إنسانية. هنا أشخاص كُثر ليس بينهم من يهب لتقديم المساعدة.

سأل أحد المزدحمين:

- لماذا لا تقدم المساعدة أنت؟ ألست إنسانا؟

- من الأفضل أن تسأل نفسك بدلاً من سؤالي؟

- أنا عندي شغل... وإلا كنت رميت نفسي إلى الصيدلية وأخبرتهم هناك..

- عنده شغل. أي شغل وأنت تتفرج منذ نصف ساعة؟

تداخلت الأصوات على شكل ضوضاء.

- طبيب؟ طبيب؟ أليس من طبيب بين كل هؤلاء؟

- قرأت في الجريدة هذا الصباح عن هجرة العقول... هاجر أطباؤنا إلى أمريكا وألمانيا.. يا أخي مابقي في الوطن أطباء.

- بـ... آه ألا تعرف شبكات الهاتف... حتى تأتي حرارة الهاتف يكون الرجل قد فقد حرارته منذ زمن.

- لو انقضت بالموت نعمة... لو انتظرت حتى إنجاز مخابرة تلفونية لما بقي من الرجل قطعة واحدة حيث تأكله الذئاب والطيور الجارحة. أتظن من السهل إجراء مكالمة هاتفية هذه الأيام.؟

- واخ واخ يموت الرجل أما عيوننا!!!

- العدل... لا يوجد عدل.

- ما الذي قاله الشاعر "عذبني آدم لم يبق عدل / أمي تبكي بين شجر اللوز المر"

قال شاب لآخر بجانبه:

- لا يمكن أن يحدث مثل هذا في أوربا أو في أمريكا، إنها دول حضارية.

- ماذا تعني، أتقصد أن دولتنا غير حَضارية؟ إذا كنت رجلاً، كرر أمام هؤلاء الشهود.

- أنا لم أقصد هذا.

- ياهوه... اتركوا المجادلة واعملوا شيئاً. الرجل يموت.

- في أوربا، لديهم مكاتب خدمات اجتماعية في حال حدوث شيء من هذا القبيل، لو سقط كلب متألماً وسط الطريق. يهبون بسرعة ويأخذونه إلى مشفى الحيوانات فوراً.

قفز الرجل الذي بجانبه.

- بلا خلط... ليس هكذا... في أوربا أو أمريكا، لا يتدخل أي شخص في شؤون الآخر. لكل شخص عمله حتى أنه إذا صرخ أحدهم بجانبك متوسلا "أني أموت، بَلعة ماء كرماً لله" لا أحد يعطيه ماء. فهمت؟

- سيدي، وهل ذهبتم إلى أوربا حتى تتكلموا هكذا.

- شخصياً لم أذهب.

- إيه...

- إذا كنا لم نذهب، فسمعنا ممن ذَهَبَ، فوق ذلك أنا أقرأ الصحف... أذهبتم أنتم؟

- بالطبع. نظمت الرابطة النقابية في مؤسستنا السنة الماضية رحلة لمدة خمسة عشر يوماً في حوض البحر الأبيض. درنا كل من اليونان، إيطاليا، أسبانيا طولاً وعرضاً وبعدها يا سيدي... سيدي... ذَكّرني ما اسمها... المهم، كلها... كل أوروبا.

- وضع الإنسان الذي يتجول في أوربا شيء مختلف.

- في آخر رحلاتي إلى لأوربا علمت أن...

- أليس من صاحب وجدان بينكم؟

- موجود، ما العمل؟

- جميل، اذهب خبّر الإسعاف.

- لا يتدخل أحد في أوربا أو في أمريكا في حي ولا في ميت. لماذا؟ كونهم بلاد حضارية . لكل عمله. لانتشال الساقطين في الطريق، الساقطين في ساقية على طرف الطريق، الساقطين المتوفين، الساقطين غير المتوفين، منظمات مختلفة، لا يحدث كما هو عندنا هكذا. لا يقفون يتفرجون على موته وهو يلفظ أنفاسه، يمرون دون أن يتوقفوا.

- يعني لم يبق عندهم إنسانية أيضاً، كيف يمر الإنسان دون أن يتوقف أو يعمل أي شيء، يلتفت على الأقل.
- هذا يعني، إلا من كان عمله. يأخذونه ويعملون به ما يريدون.
- لو فككت زنار وأزرار صدر المسكين.
- يا سيدي أفضل عمل في حالة كهذه التدليك. لو دلكه أحدنا لأنقذناه.
- لو حركوا أرجله وضغطوا على صدره قليلاً. يمكن أن يصحو.
- أي تدليك. يا أخي أي تدليك... آ .. مات الرجل وأنت بِمَ تتكلم.
- مات! واخ واخ... أماه.
- لماذا استغربت.
-كان حياً قبل قليل.
- وما المدهش في هذا؟ بعدها مات. كل الأموات قبل أن يموتوا بقليل يكونوا أحياء.
- الروح مثل الطير، دقيقة موجود ودقيقة لا.
- هذه نهايتنا جميعاً
- نحن لا يمكن أن نكون بشراً يا أخي. وهل من الإنسانية أن يكون هذا الحشد فوق رأس الرجل ولا يساعده أحد.

عزيزتي ذبابة الحمار، في الحقيقة كنت معجباً جداً بحديث الناس المجتمعين فوق رأسي. لو كنت أعرف أن كل هذه المتعة لهذا الحدث لذهبت كلما ضجرت إلى إحدى الساحات المزدحمة ووقعت مؤدياً (مشهد) الموت.

لكن لحظتها لا يمكن لي أن أعمل ذلك المشهد لأنني وعدت بأنني سأموت. ولا يمكن لي أن أرجع في كلامي لأن كلمتي كانت أمام جمع غفير من الناس.

بعض العابرين، يقفون منذ نصف ساعة من الزمن يستفسرون، ويحصلون - حسب اعتقادهم - على بعض المعلومات عني، ويذهبون. والبعض يمل لسماع كثرة التفاصيل الدقيقة والمطولة فيولون. ولأن كل أربعة - خمسة أشخاص يحتلون مكان كل ذاهب، فالازدحام كان يكبر. يتدافعون لرؤية الميت.
صرخت امرأة بولد أمامها:

- ما عمل ولد يقف هنا أمام رَجُل؟

بعدها قال رجل كان يحمي بين ذراعيه امرأة من الزحام:

- لم يبق تربية. ومع هذا يقولون إنهم يربون الجيل الجديد للوطن "خرجت إلى الهضاب، لأنه لم يبق عندي سوى صاحب الجناب".

- ومن هم الذين تجتمع فيهم الأبوة والأمومة في هذه الدنيا؟

قال واحد ممن يدقق في ألبستي، عيني، حاجبي...

- انظروا إلى ربطتَي حذائه، إحداها سوداء والثانية بنية.

انفجر الجميع ضاحكين من هذا الكلام.

خجلت إلى حد... أردت أن أخفي إحدى قدمي تحتي حتى لا أبدو أنني استعملت ربطات حذاء مختلفة الألوان. ولأنني ميت فمن العيب أن أتحرك من ناحية، ومخالف للأعراف من ناحية أخرى. عندها أيقنت أنه على الواحد منا.. أن يفكر جيداً أو يستشير الآخرين قبل أن يعمل أي شيء. إذا كنت ستموتين فعليك أن تعرفي شكل استلقائك على الأرض. وعلى هذا الأساس ستحسبين سقوطك. أنا عندما مت تمددت في ساقية على حافة الطريق بشكل عشوائي، حتى إنني لم أفكر أن بعض النبهاء من المواطنين سيلاحظون أن ربطتَي حذائي من لونين مختلفين.

قال أحد المدققين فيما كنت ألبس:

- أراهن على أن حذاءه رُقِّعت نعلُه ما لا يقل عن ثلاث مرات. أكثر المتأملين عليَّ كانت امرأة مسنة صباغها ودهونها طبقات... طبقات. قالت:

- واخ واخ... ماشاء الله رموشه طويلة ومقلّبة. يا حيف على شبابه. ما هؤلاء الناس ليس بينهم أي شبه. منهم من هو صاحب مزاج بالشعر ومنهم بالرموش. من يخطر بباله أن هذه المرأة صاحبة مزاج بالرجال، ذوي الرموش الطويلة؟

- بنطاله عيون عيون.

- أكمام (جاكيته) مهترئة.

- بنطاله ذاب تماماً عند الركبة.

- ما الذي تقولونه، ياهوه...

- ماذا سنفعل؟

- ليخبر أحدكم طبيباً.

- إنه يموت أمام أعيننا.

- لنَر فيما إذا كان حياً.

- يا عزيزتي ليمت أو ليعش فما علينا نحن إلا أن نشهر إنسانيتنا.

- كم عمره قولكم؟!

- أربعون... خمسة وأربعون

- لا أظن ليس أكثر من ثلاثين

- أنا أعرف بالبشر. يكفي أن أنظر في وجه الإنسان لأعرف من أي طينة هو... هذا الرجل موظف محدود الدخل مئة بالمئة.

- وأنا أقول أنه كذلك... إنه من النوع الذي يعمل وهو يجلس إلى الطاولة بشكل دائم.

- من أين عرفتم هذا؟!

- انظر إلى كوع (حاكيته) لقد اهترأت تماماً.
- انه قصير القامة.
- لا يعرف عمره تماماً.
- أتريد أن أقول لك شيئاً؟ ليست الفرحة لمن يموت بأجَلِه هكذا أية قيمة. وليس لها أية بهجة. لينفذ الإعدام. عندها تصبح للفرحة متعة.

ذبابة الحمار الحبيبة، بقيت في تلك الساقية أكثر من ست ساعات على ما أظن لأن الشمس كانت على وشك المغيب، كان الناس يأتون فصائل فصائل ليتفرجوا عليّ. الجميع حزين ومتأثر ، وتألموا لكوننا أناساً سيئين لا نساعد بعضنا. حتى أن البعض تمادى فشتم ودعا على من لا يمد يد المساعدة، وبينما كانوا على وشك رفعي، إذ بأحدهم يقول وهو معلم باعتقادي:

- لو كنت أعلم لأتيت بالتلاميذ ليتفرجوا كيف يموت الإنسان ونعمل درساً تطبيقياً.

صرخ أحد المواطنين محاولاً تفريق الزحام:

- ألم تروا في حياتكم ميتاً حتى تكومتم فوق رأسه.

حاول رجل آخر أن ينظم الجمع فقال:

- لنقف بالدور يا شباب، بالدور بلا تدفيش ولا مزاحمة.

بينما كانوا يضعونني في سيارة الإسعاف، شق أحد المواطنين الازدحام لرؤيتي قائلاً:

- دقيقة يا شباب... لقد أتيت من مسافة بعيدة لرؤيته.

سألوا الرجل؟!

- أمن معارفكم؟ أم أقاربكم؟

قال:

- لا، علمت بالأمر فأتيت.

يا حرام، لم يتمكن كل المواطنين من رؤيتي.

انطلقت السيارة. تبعها ركضاً بعض الأولاد والشبان لدقـائق، في النهايـة فهموا على مايبدو أن قوة الإنسان، لا يمكن أن تسبق قوة الآلهة.

ذبابة الحمار الحبيبة، في الرسالة القادمة أحكي لك حكاية رحلتي

- نعم كانت رحلة - في سيارة الإسعاف.

تحياتي، وقبلاتي لإبرتك وعيونك.

المخلص

حمار ميت

الرسالة الثالثة

(الحمار الميت يحكي عن رحلته في سيارة الإسعاف)

عزيزتي ذبابة الحمار

أبدأ بالسلام، والقبلات الحارة من إبرتك.

شرحت لك كيف تم موتي وإلقائي في سيارة الإسعاف بالهلهلة والصياح، والطبل والزمر. الآن اسمعي ما وقع لي بعدها. (إن رحلة عشرين ألف فرسخ في غواصة) لا تساوي شيئاً أمام رحلتي في سيارة الإسعاف.

مددوني على طولي في مؤخرة السيارة. فجأة صعقني الخوف ظناً مني أنني راكب في سيارة (تكسي)، وسيطلب السائق الأجرة. ثم ارتحت بعد أن تذكرت أنني ميت.

لم نسر في الطريق مسافة خمس مائة متر حتى خرج صوت محرك السيارة (زيك) ووقف، و لم يتحرك مرة أخرى. تقدم السائق نحو المحرك كسياسي ينفث النار على خصومه. شَتمهُ، هَزَهُ، خربطه، ولكن السيارة لم تتحرك ولا بأي شكل، تظنها صبّة (بيتون) مثبتة في الأرض كإسفين. قال السائق للجمهرة التي طوقته:

- أمن غير الممكن ألاّ يزدحم الناس؟!! نحن لا نعيش إلا بشكل مزدحم. مادمتم مجتمعين، يا لله يا شباب لندفع العربة من الخلف! غيَّر السائق طريقة لفظ كلماته، أعاد ترتيبها، كررها لمرات بتوسُّل، للمتجمهرين، عندها بدأ الزحام يخف. لحظتها قال لمعاونيه.

- أرأيت كيف فرقت الزحام؟ إذا احتمع عليك مثل هؤلاء العاطلين وأردت تفريقهم فما عليك إلا طلب المساعدة. اطلب منهم شغلة صغيرة. عندها سترى الجميع يهربون.

توسل السائق لمن تبقى حول السيارة، المساعدة، قال بعض الكلمات المحملة بنوع من القداسة مثل وطن، شعب، ضمير، لكن المزاحمين كانوا يجرجرون أقدامهم متراجعين.

نصح أحد المنسحبين السائق الذي كان يحاول العبث بالمحرك:

- لا تلعب فيها على الفاضي، إذا خربت العربة يقال "أينما تقول تك، فهناك اترك.."

- أأنزل وأدفع السيارة من الخلف يا معلمي؟!

قال السائق:

- اجلس في مكانك، سترى كيف سأجعلهم يدفعون السيارة.

مط رأسه من النافذة وقال:

- الله يرضى عليكم، من يحب الله فليدفع السيارة من الخلف.

بقوله "الله يرضى عليكم" اجتمع المتفرقون وكأنهم جمع نمل تهجم على قطعة سُكّر.

مسكوا السيارة من يمينها، يسارها، عجلاتها، غطاء عجلاتها، خلفها أمامها، جنبها ... مسكة، من الأصح أن نسميها لمسة. مثل تلك التي تلمسها سيدة من طبقة اجتماعية راقية ليد رجل من طبقة اجتماعية دنيا عندما تكون في موقف مضطرة فيه للسلام عليه.

أما من ناحية الصياح والصراخ، فكانوا يصيحون بشكل تظن معه أن الأرض تهتز. فوق كل ذلك، كان كل واحد يُحمسُ الثاني من كل قلبه:

- يا الله يا شباب.

- الصبر يا مواطنين.

- يالـ.....ـه... واحد، اثنااا.........ن، ثلاثة.

ولأنه لم يكن أحداً منهم يدفع بجد، بل أحدهم يأمر الآخر الذي يتوسـل، المتوسل يطلب إلى آخر، لذا كانت السيارة لا تتحرك حتى بمقدار إصبع.

يا ا لله يا شباب.

- ادفعوا يا أخوة الدين.

- اصبروا قليلاً على الدفع يا هوه!

- ما فائدة الإسعاف إذا لم تصل إلى المشفى في زمانها.

- اصبروا قليلاً يا مسلمين، اصبروا على الدفع ياه...

- كلنا مع بعض.

- يا ا لله.

لو أنكِ سمعتِ صراخهم، لظننت أنهم وجدوا دافعة أرخميدس، وسيقلبون الدنيا رأساً على عقب. لكنهم لا يحركون حتى عربة على أربع عجـلات بمقـدار إصبع.

- من الأول مرة أخرى.

- كلنا مع بعض.

كانت قطرات العرق تك... تك، تسيل مـن رأس أنـف السـائق الجـالس خلف المقود. الحق، لم يكن ثمة من يدفع غير السائق. ولأنه جالس علـى كرسيه داخل السيارة فهي لا تتحرك.

- يا ا لله بقي القليل.

- زكاتكم، لندفع يا شباب.

قال السائق

- لو تحركت قليلاً من مكانها، لما توقفت.

سأل المعاون:

- معلمي، هل تسير فعلاً إذا تحركت قليلاً.

ماذا تعني بقولك تسير، قل تطير... ولا يُمكن إيقافها.

يا حفيظ.

كان رجل عجوز يصيح من بعيد وهو قادم:

- همة الرجال تقلع الجبال

- ماذا يعني الكلام بابا.

- يعني يا ابني إن الشباب إذا أرادوا - يستطيعون قلب الجبال، رأساً على عقب.

اتركنا من القلب رأساً على عقب، ياهوه... كفاية علينا تحريكها بمقدار إصبع.

كان الأطفال يدفعون خلف الرجال وفي الدائرة الخارجية، النساء والشيوخ... وهم أيضاً يخرجون صوت، هيه... هيه، مثل الصوت الذي يخرجه دقاق القهوة - على زعمهم - أنهم يحمسون دافعي السيارة.

- ادفعوا يا أخوان.

- من يحب الله فليدفع هذه البلية.

كان هناك من يقدم بعض وجهات النظر.

- لو كانت هذه السيارة في أمريكا لغدت كالريح وطارت.

لماذا تطير في أمريكا.

- هناك تطير... لا أدري، لماذا هذه الآلات ذات المحرك تغدو عندنا مثل حمار عنيد وضع أمامه الماء. لا تمشي يا سيدي لا تمشي، إنهم يدفعون دون جدوى.

وردت هذه العبارة بالعربية، ومكتوبة بأحرف تركية، لذا يسأله السائق عن معناها. (م)

- أتذكرون القطار الكهربائي؟

- وهل يذكر القطار الكهربائي الآن؟

- ما قولك في أنه لم يمش، يا هوه.

- سيدي، السبب، مناخنا.

- لا ياه...

لا أقول إلا الحق... في يوم من الأيام اشترينا سفينة من ألمانيا. السفينة تسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة، ثلاثين ميلاً أو ستين.... لم أعد أرى كم ميلاً...

- لا يكون جَمل؟!

- ليس جملاً يا سيدي، سفينة... أتت بسرعتها إلى أن وصلت إلى مياهنا الإقليمية، وعندها لم تتقدم ولا ميليمتراً واحداً. حتى الأمواج لم تحرك السفينة. أداروها إلى الجهة المعاكسة فانطلقت بسرعتها، وجهوها ناحية مياهنا الإقليمية فوقفت مثل حصان يشرئب ولا يتحرك إلى الأمام.

- لا ياه، وماذا أيضاً؟!

- أيامها، كتبت عنها الصحف، ألم تقرأها؟

- السبب هواء البلد وماؤه، يجب أن يُصنع محرك مناسب لمناخ كل دولة على حده.

- اسمع، هذا الكلام صحيح. الباصات التي تعمل على خط منطقة الأكواخ لا تعمل في أي مكان آخر. في حين أنها على ذاك الخط وظ... وظ تذهب وتأتي. لماذا تشتغل؟! السبب تعليق عبارة يا (معين) فوق المقود. إنها تسير بقوة هذه العبارة.

- لا ياه...

- أين قباطتنا القدماء... لو ركب قباطتنا القدماء - ليس تلك السفينة التي من صنع الكفار - بل لو ركّبتهم الجزر لسيَّروها. لو كانوا موجودين الآن، لسيَّروا جزيرة قبرص بطولها وعرضها.. وربطوها على رصيف (القرة كوي)

- هناك قول عن أحد القباطنة

- هذا، عَرفتُه، إما بربروس[٣] أو المعمارسنان[٤]

أحدهما قال "أعطوني الشراع الذي أريد وأنا أسيّر لكم جزيرة كريت."

- وهل سيّرها؟

- لم يعطوه الشراع الذي طلب. لو أنهم استطاعوا، لسيّر قبطان البحر الجزر، وشكّل منها أسطولاً.

- يا الله يا أخوان، اتركوا الحكي وادفعوا قليلاً.

- مع بعض... هيه!

- من أول... واحد.... اثنان... ثلاثة!!

- تعبنا يا هوه، لنسترح قليلاً ونشرب سيجارة.

- راحت تلك الأيام من زمن، يا سيد، راحت مع الماضي. أصبحت في خبر كان... أين تلك الأيام؟ كان عندنا الانكشاريون، شارب أحدهم يكفي لشنق أحد الجنود الأعداء... قَدْرُ ذاك الشارب... كان عندنا جوقة الموسيقى العسكرية، كانت ضربة أحدهم على الطبلة تحرك الأرض من مكانها، وتهز السماء. حتى إن وجوه جنود الأعداء تتمزق من الخوف، صراخ جنود بحريتنا كالعاصفة... يغرق سفن الأعداء..

---

[*] اسم المنطقة التي تحوي الميناء الدولي في اسطنبول، وأحد موانئ النقل الداخلي بين اسطنبول الغربية والشرقية. (م)

[٣] أحد القباطنة العثمانيين المشهورين.

[٤] أشهر فناني العمارة في القرن السادس عشر.

- **لا ياه... ماذا؟**

- **هذا ما كتبه التاريخ، انظر إلى حالتنا الآن. أربعون خمسون شخصاً مجتمعين ولا نستطيع تحريك خردة سيارة إسعاف مكسورة المؤخرة.**

- وا لله صحيح... أحضر طبال الانكشاريين ولنر فيما إذا كانت سيارة الإسعاف هذه تستطيع أن تبقى مكانها؟ وا لله لو ضرب الطبال الانكشاري على الطبلة لتحولت السيارة إلى طائرة، تطير وتذهب.

- أنا لا أعرف هذا ولا ذاك... الذي أعرفه، أنهم لم يستطيعوا أن يسيّروا سفينة الألمان في مياهنا الإقليمية.

- تحركوا يا أخوة الدين... يا لله يا سباع، يا أبطال

قال السائق، السابح في عرقه لشدة دفعه من داخل السيارة.

- لو مشيتموها قليلاً لتابعت لوحدها.

-لماذا تسير السفن والقطارات والباصات في الدول الأخرى ولا تسير عندما تأتي إلى بلدنا؟

- تستغرب... ألم أقل لك، مناخ البلد.؟

- نعم، هذه المحركات صُنعت من أجل مناخ دول أخرى، مناخنا لا ينفعها... إنها مثل الإنسان تماماً... لكل إنسان الطقس الذي يؤاتيه، هواء الجبل جيد للبعض والبحر للبعض الآخر والسهل أيضاً.

- عيب عليك أن تحكي هذا الحكي، وأين يوجد مناخ مثل مناخ بلدنا؟

- حاشا. ليس هناك كلام على مناخ بلدنا... نحمده على مناخنا الجميل... ماذا لو كان هذا غير موجود أيضاً... أنا قولي ليس بهذا المعنى... أنا أقصد لو كان لدينا مصانع لصنعنا محركات تناسب مناخنا.

- ادفعوا قليلاً يا هوه.

- ادفعوا!

- أججت صيحات المواطنين الحماسة فيَّ حتى كدت أنسى أنني ميت، وأقوم وأدفع سيارة الإسعاف مع الناس. من مساوئ الموت أنكِ إذا أردتِ أن تهبّي لمساعدة الأحياء فلا تستطيعين. حتى إنني لم أستطع الوقوف جانباً لأدعمهم بالصياح.

ذبابة الحمار الحبيبة، بينما كنا على هذه الحال نحمّس بعضنا بين ميت وحي، خرجت سيارة خاصة، وبأعلى سرعة ضربت مؤخرة سيارتنا. بهذه الضربة أخرج محرك السيارة صوت "عن.. عن." ثم قفزت السيارة إلى الأمام وكأنها كلب حراسة يطارد لصاً. (اللي بيحب الله لا يمسك بسيارتنا). السيارة بدأت تمشي، ماذا يعني تمشي؟ كانت تطير ... السائق على حق، ألم يقل "إذا مشت تمشي على طول" تلبّس السائق الخوف لأن سرعة السيارة تزداد، وهذا يعني أن حرارة المحرك تزداد ارتفاعاً، قال السائق لمعاونه:

- ضربت السيارة الخاصة مؤخرة سيارتنا بقوة، و لم يعد باستطاعتها الوقوف.

- الفرامل، الفرامل يا معلمي.

- أي فرامل يا بني، وهل تفعل الفرامل شيئاً مع هذه السرعة.

لكوني في الداخل لم أستطع مشاهدة خارج العربة وأغلب الظن أن السيارة مرت من أمام مشفى الإسعاف، عدة مرات ولكن السائق لم يستطع إيقافها وغضب من معاونه وصاح به:

- ولاه، بماذا ملأت السيارة بنزينا أم زيت نفط؟

لم يخرج المعاون صوته.

كنا ندور في أحياء اسطنبول. و لله الشكر أن السائق كان يتحكم بالمقود جيداً فلم يقع حادث لا أشكره لنفسي بل من أجل المسكينين، السائق والمعاون اللذين يريدان العيش أكثر.

ذبابة الحمار الحبيبة، نهاية رحلة سيارة الإسعاف التي غدت كدورات الأعياد سأحكيها لك في الرسالة القادمة، لعل وجهك العابس من مماحكات السياسيين في الحياة يضحك ولو قليلاً. أدعك بخير، ذبابة الحمار الحبيبة.

مع محبتي

حمار ميت

الرسالة الرابعة

(حكاية عطل سيارة الإسعاف)

ذبابة الحمار

مع فرملة سيارة الإسعاف وخروج صوت منها محملاً بالمرارة، وصل أحد المواطنين إلى مرحلة كاد أن يمسح اسمه من قوائم الانتخابات وسجلات النفوس. ولأن لا مال له ولا جاه، التف حول الرجل الجريح الملقى على الأرض، جمع غفير من المواطنين ممن لم يجدوا وسيلة أخرى للتسلية.

قال واحد منهم:

- محظوظ هذا الرجل.

قال آخر:

- نعم لا يمكن أن يكون هناك إنساناً محظوظاً أكثر من هذا. ليشكر ربه على أنه دُهِس بسيارة إسعاف.

- هذا ما اسميه حظاً.

- المريض المكتوب له أن يعافى يأتيه الطبيب إلى قدميه... أليست الحسبة نفسها. السيارة التي عَفَست الرجل تأخذه إلى المشفى. ماذا لو عفسته سيارة أخرى...

- كان سيحرق نفسه. لو تخبط طول النهار على الرصيف لما وجد سيارة إسعاف.

- بلا إسعاف يا سيدي... نحن راضون بسيارة زبالة.

- واخ واخ ... أنت تطلعت عالياً أكثر من الحد... أين نحن من سيارة زبالة. منذ أسبوع ولا تتنازل للمرور من حارتنا.

- حظ.. هذا حظ يا أخي... اسطنبول، طولها وعرضها، كم ألف شاحنة فيها، وكم ألف سيارة خاصة ومن نفس العدد (تكسي)، وكم... وليس فيها أكثر من خمس - ست سيارات إسعاف واحدة منها، تدور.. وتدور... وتدور... وتجد هذا الرجل، أي حظ هذا؟!!

- لا، عند البلدية عشر سيارات إسعاف، ثمانية منها معطلة باستمرار.

- نعم، على قولك ياه... من بين كل الألوف من السيارات الصغيرة والشاحنات والباصات تصدمه سيارة إسعاف.

- الفائز بالجائزة الكبرى باليانصيب، لا يعد محظوظاً مثل هذا.

- بالضبط... المحظوظ فعلاً، هو من يُصدم بسيارة إسعاف كهذه.

- بعد أن يموت الإنسان ما الفرق معه أن يُدهس تحت سيارة إسعاف، أو شاحنة، أو سيارة زبالة أو سيارة خاصة؟

- لا فرق إن مات. ولكن تفرق كثيراً لو أنه لم يمت... وهذا الرجل لم يمت بعد.

كان الرَجُل المصدوم قد طار مقدار عشر خطوات إلى الأمام في الهواء وسقط على الأرض... وقد ملأت دماؤه التي تسيل من جروحه ومن فتحات جسمه حفر الإسفلت.

قال أحد المتجمهرين:

- ما شاء الله على دمه.

قال آخر:

- من الواضح، بالنظر إلى كمية دمه أنه ذو شأن.

- أي شأن أنا أعرفه؟

- إذا كان غير ذي شأن فمن أين لـه كـل هـذا الـدم؟ انظـر الـدم يجـري وكأنه من ثور مذبوح.
- هذا الرجل محترف بيع الدم (للبنك). كان يحمل مذياعاً صغـيراً يضعـه على أذنه عندما يقول المذيع مريض بحاجة إلى دم... يذهب بسرعة إلى المشفى أو (بنك الدم) إن كان دمه يطابق الدم المطلوب. كان يعيـش عـال العـال مـن بيـع الدم... جسم هذا الرجل الذي أمامك، إذا شرب ماءً يحوله إلى دم.
- في يوم من الأيام صدمتني شاحنة. غبـت عـن الوعـي. إن أردت الحـق فأنا غبت عن الوعي قبل أن تصدمني بكثـير.. المهـم، شـاحنة بـوزن عشـرة طـن عفستني ولم تسـل مـني قطـرة دم واحـدة.. في اليـوم الثـاني رفعونـي مـن وسـط الشارع إلى المشفى. لحظة قول الطبيب "سنجري له جراحـة" بكـت أمـي كثـيراً وأصبحت عيناها مثل نبعين وقالت للطبيب "دخيلك يا بني، ما دمتـم ستعملون له عملية، صارت وصارت، ابني عنده فتق والزائـدة، اعملـوا لـه إياهمـا ينـالكم الثواب.. " مددني الطبيب علـى طاولـة العمليـات وبـدأ الذبـح والقطـع. يقطـع ويقطع دون أن تسيل نقطة دم واحدة.
- يعني دمك جاف.
- لا يا أخي أين الدم ليجف.
- إذا جف دم الإنسان فليشرب عرقاً، يتميع فوراً.
- ماذا تقول... أين الدم ليفسد.
- لا تقبلها، وهل يعيش الإنسان دون دم؟
- ودهش حتى الأطباء... حتى إن الطبيب الـذي عمـل العمليـة قـال "لا بأس أن لا دم فيه. لو كان عنده دم حين دهسته الشاحنة لسـال وسـال حتـى لم يبق منه شيء.. عندها كان سيموت" لا يوجد عندي دم ليسيل.

- لا تصدقوه، كذاب... وهل يدخل في العقل: أن الإنسان يعيش دون دم.

- لا يمكن مطلقاً. أليس دم كل شخص أحمر، دمي أنا أبيض. أتعرف البطيخ قبل أن يصبح أحمر كيف أن لونه يميل إلى الصفرة. دمي من ذاك اللون.

- أيعقل هذا؟

- وهل تحمّر البندورة إذا لم تتعرض للشمس؟ لا، دمي أيضاً. أنا ولدت ونشأت في قبو ولعدم رؤية جسمي الشمس لم يحمّر دمي.

- ها... الآن صار كل شيء آخر... معقول... قل هذا من البداية.

- رموا الرجل المصاب بجانبي. أصبحنا في السيارة جريح وميت والمعاون والسائق وأربعة. ضرب العناد رأس السيارة و لم تعد تمشي.... أية عربة هذه، إذا مشت لا تعرف الوقوف، وإذا وقفت لا تمشي.

قال أحدهم:

- في الجوار ورشة تصليح. لندفعها إلى هناك.

بدأوا الدفع بالحكي... اللعبة القديمة تجددت. ليس إيصال العربة هو ما يريدونه، لكنهم يريدون أن يتسلوا... تسلية من دون نقود.

قال واحد من بينهم:

- هل تعرفون كيف رفع أربعون شخصاً بيضة واحدة.

- بيضة واحدة، أربعون شخصاً، وماذا أيضاً؟.

- سيدي، قال الملازم أول للجنود "أرفعوا هذه البيضة من هنا" ثم ذهب. إثر ذلك اجتمع الجنود، أحضر أحدهم بطانية من المهجع ووضعوا البيضة فوق البطانية ثم مسك كل جندي جزءاً من حافة البطانية ورفعوها.

- وما القصد؟

- القصد، أنهم يدفعون سيارة الإسعاف بنفس الطريقة.

- بدلاً من تقديم نصائحك لهذا وذاك... ادفع أنت...

التقى سائق الإسعاف، سائق (تاكسي) من معارفه، ربط سيارة الإسعاف في مؤخرة (التاكسي) وأخذها للمصلّح. عندما فتح المصلح غطاء المحرك ونظر إليه، صاح بأعلى ما يمكنه:

- ما هذا؟!!

رد السائق ببرود:

- ماذا حدث؟

- ما الذي سيحدث أكثر؟ أنا مصلح لمدة أربعين سنة، في حياتي لم أر محركاً كهذا.

- إذا لم تكن قد رأيت، هذا أنت ترى الآن.

- في هذا المحرك قطع تبديل من كل أنواع الآلات، من (ماكينة) الخياطة حتى (ماكينة) الحلاقة.

قال سائق الإسعاف ببرود:

- أخطأت بقولك، ماكينة حلاقة. هذا ليس إلا أحد براغي (البسطون) لمحرك قطار. في أحد الأيام كنا ذاهبين إلى المشفى بسرعة قصوى مقدارها عشرون كيلومتراً. ومعنا مصاب. في الطريق، تعطلت السيارة. أخذناها للمصلح. لم يجد المعلم بدلاً من القطعة الخربانة.

- فهمت... بسبب عدم وجود العملة الصعبة، لا يوجد قطعة تبديل لأي (ماكينة). عندما لم يجد القطعة البديلة وضع هذا مكانها.

- لم يكن هذا هو السبب. (موديل) سيارة الإسعاف، قديم جداً. لا يوجد الآن أي محرك من نوعه. ما العمل؟ سيموت المصاب في السيارة من النزيف. لو كنا في المدينة، سهلة. كان بإمكانك لف الجرح، تعمل امصال على شكل طرد تضعه أمانة عند رجل ما، وتذهب إلى المشفى وتعطيهم خبراً. لكننا

لسنا داخل المدينة. المهم، دلنا فاعل خير: "هناك ورشة للخطوط الحديدية، في الورشة معلم يفك محركات القطارات القديمة ويعمل منها حرارات. والحرار يعمل منه رافعة، عَمَله، الفك وصنع أشياء أخرى. لا يستعصي عليه شيء" ذهبنا إلى تلك الورش. الرجل معلم أعطيناه الأجرة وفهم عطل المحرك. جرب كل ما في الخزائن، على الرفوف، في أرض الورشة من براغي، عزقة، مسمار، محور دراجة على أن تركب مكان القطعة المعطلة في محرك سيارتنا، فلم تركب. بعدها طابق برغي مسنن ذراع (البسطون) لمحرك قطار، القطار الخاص بالسلطان... لا أعرفه... ركّبه للمحرك، فاشتغلت السيارة.

سأل المعاون السائق:

- ألهذا السبب يخرج صوت (شق، شق) من سيارتنا.

قال السائق:

- من المحتمل.

قال المصلح للسائق:

-(بتحب ا لله)

- لا إله إلا ا لله.

- وبعد.

سيدنا، بعدها، وقع نظر بعض السياح على سيارتنا، صوروها، نشروها في جرائدهم وكتبوا تحتها "سيارة، من قبل اختراع السيارات بخمسين سنة" عندما قرأ مدير المصنع الذي صنع سيارتنا الخبر. حمل نفسه وأتى إلينا لرؤية السيارة. كان المصنع يبحث عن أقدم سيارة صنعها، ليضعها في المتحف. عندما رأى الرجل سيارة إسعافنا - لشدة سروره - رمى قبعته في الهواء. وصرخ بالأمريكي "هووو....." . اجلسوا للاتفاق. دفع الرجل مقابل خردتنا هذه عشر سيارات إسعاف جديدة، مع قطع تبديل. كانت سيارتنا تغطي عجز الميزانية...

المهم، جماعتنا لانوا قليلاً... لا ندري كيف خطر ببال الرجل أن يرى محرك السيارة. لحظة فتحه الغطاء ورؤيته للمحرك، شخصت عيناه، كأنه أصيب بمس. قال: "أنا أصنع سيارات منذ أربعين سنة، لم أرَ و لم أسمع في حياتي عن محرك كهذا".

- ما سبب إصابة الرجل بكل هذه الدهشة؟!!

- لماذا لا يُدهش... في محرك سيارتنا قطعة - قطعتي تبديل من كل ماركة من الماركات الموجودة على سطح الأرض. أو محركات مصانع أو سفن. لم يبق في المحرك الأصلي لا قطعة ولا حتى برغي. هذا يعني أننا خلال هذه الفترة فكينا كل قطع المحرك، وركبنا بدلاً عنها كل ما يقع تحت يدنا. بدأ الرجل يخربط المحرك مذهولاً. طلع بيده خيط. سأل: "ما هذا" قلت: "قطع السلك الذي كان هنا فربطت الخيط مكانه". خرجت بيده قطعة مطاط من مكان آخر، فقال: "طيب، وما هذا؟" قلت: "هذه حمالة بنطالي. انقطع (قشاط) المحرك فوضعت مكانه حمالة بنطالي" كنت أتكلم مع الرجل بواسطة مترجم. قال الرجل" هنا اثنتان" قلت: "نعم حمالتي مقطوعة ففككت حمالة بنطال المصاب الذي في السيارة" عندها بدأ الرجل يشد شعره. بهزة صغيرة للسيارة نزل منها بين كبير وصغير عدد من البراغي والمسامير!! بيورات خشبية! أمسكت بيده وقلت: "لا تعامل هذه السيارة كما يعامل المواطن في مديرية الأمن عند التحقيق" سأل: "ما هذه المسامير؟ هل تحمِّلون في السيارة مسامير!". نستعملها لتثبيت القطع التي نركِّبها بدلاً من الأولى. عندما تمشي السيارة في طريق صاعد ينزل المعاون ويلملم البراغي والمسامير من خلفها. غضب الرجل، تغَير لونه وسأل: "كيف تمشي هذه السيارة؟" أتى دوري في الكلام، و لم أعد أحتمل، سحبت الرجل من يده وأقعدته خلف المقود. تكلمت والمترجم يترجم له: "هل تظنون أن بإمكان السيارة المسير بالمحرك الذي صنعتموه أنتم؟! طز. لو بقيت على ما صنعتم

لخربت بل وعفنت منذ زمت طويل... البرَكة في دعائنا. أنظـر فـوق المرآة، أنـه دعاء النمل. هنا "البسملة" وهناك "ما شاء الله" وفي السقف "يـا حـافظ" وهـذه خرزة زرقاء تحمي السيارة من عين الحسود. هذه فردة حذاء طفل قديمة، وحدوة ورأس ثوم تجلب الحظ للسيارة... وهذا درع سلحفاة صغيرة تحمي السـيارة مـن الحوادث. اصحُ لنفسك يا سيد... هذه السيارة لا تعمـل بقـوة البـنزين والمحـرك. هذه تعمل بقوة الله ونبيه. قال بنزين، قال زيـت، قـال مـاء... هـذا كلـه حكـي فاضي. لو أننا نضع بنزيناً وزيتاً ومـاءً لكـانت السـيارة سـيارتكم. أعلـم أننـا لا نضع هذه الأشياء إلا مراعاة للأصول." عَدَلَ الرجل عـن شـراء سيارتنا، وتـرك (هالكافرة) على رأسي. ليس في هذه السيارة أي قطعة باستثناء الهيكل وهو مثل (البقجة) المرقعة. بالتالي لا يستطيعون قيادة هذه السيارة أبداً.

طالت الرسالة يا ذبابة الحمار الحبيبة وأنا تعبت أيضاً. في الرسالة القادمـة أحكي لك كيف أُصلحت السيارة، وكيف نُقلت والرجـل الجريـح إلى المشـفى. لو سأل عني أحد، وأبدى حزنه بعد موتي قولي له إنني أنتظره بشوق في المقبرة.

لك إخلاصي

حمار ميت

الرسالة الخامسة

(حكاية صدم سيارة الإسعاف بالشجرة)

عزيزتي ذبابة الحمار:

وعدتك في رسالتي السابقة أن أحكي لك كيف أُصلحت سيارة الإسعاف، ونُقلنا إلى المشفى. اسمعي:

أدخل المصلح رأسه داخل المحرك محاولاً معرفة مكان العطل. لكنه لم يستطع بأي شكل، رغم تكرار المحاولات. كان يخرج رأسه بين فترة وأخرى يسب ويشتم لمدة دقيقتين، يرتاح بعدها، يشرب سيجارة. ثم ينحني على المحرك من جديد يحادث سائق السيارة.

- يا أخي مادام الرجل أتى إلى هنا لشراء هذه التحفة. لو كنتم (أرخصتموها) عليه وتخلصتم من هذه البلية. أنتم تتخلصون، ونحن أيضاً، والوطن كذلك... من ناحية، لو أخذ هذه الخردة إلى هناك ووضعها في (شادر) وقطع بطاقات من أجل رؤيتها.. سيجمع من ورائها نقوداً كثيرة... انحنى مرة أخرى على المحرك وبعد فترة من (خربطته) قال:

- كيف لي أن أكشف العطل وليس في هذه السيارة شيء سليم؟

رفس السيارة. تألمت قدمه. ذهب إلى الدكان وهو يعرج. جلس القرفصاء أسفل الدرج. كيفما كان، أنا ميت ولا يستطيعون إنقاذي... يا ليتهم استطاعوا إنقاذ الجريح الذي بجانبي. قذف معاون سيارة الإسعاف بصقة على الجريح الذي في العربة وقال:

- في حياتي لم أرَ أخس من هذا الرجل.

غضب السائق وبدأ يحادث نفسه:

- يمشون في الطريق ولا ينظرون أمامهم فيُدهِسُّون أنفسهم ويبلوننا.

انضم المصلح إلى الحديث من مكانه:

- ماذا يستفيدون من النظر أمامهم... إذا لم يُدهسوا بالسيارات التي تأتي من أمامهم. فيدهسون بالتي تأتي من خلفهم.

- استغفرك يا رب... لا تدخل في شؤونه تعالى... سبحانك يا الله، فعلت حسناً أنك خلقت للإنسان عينين اثنتين.. لكن بدلاً من أن تجعلهما بجانب بعضهما، لو وضعتهما واحدة في الخلف وواحدة في الأمام.

قال المعاون:

- عندما خُلق الإنسان لم تكن هناك زحمة مواصلات مثل الآن.

قال السائق للمصلح متوسلاً:

- دخيلك يا معلم. دخيل عينيك... الجريح يموت داخل السيارة من النزف.. قد يطلع أحد أقربائه مسؤولاً فنبتلي... دبرها، الله يخلي لك (هالعين)

وقف المصلح ودَسّ رأسه تحت غطاء المحرك. وخربط فيه لفترة... نهايتها عرف أين عطب المحرك. عرف لكنه لم يجد القطعة المطلوبة.

قال:

- لا يوجد منها.

- دخليك يا معلم.

قال المعاون:

- إذا كانت غير موجودة في أي مكان، سأذهب وأسأل الصيدلية.

قال السائق بلهجة تأنيب:

- هو دواء ولاه...

قال المعاون:

- أين الـدواء مـن الصيدليـات يـا معلمـي... حتـى الأسـبرين لا تجـده في الصيدليات. ما عدا الدواء كل شيء موجود... ممكن أن نجد القطعة التي نبحـث عنها.

- لقد جرَّبت كل القطع التي عنـدي ليـس بينهـا مـا يَصْلـح. منـذ فـترة، وقعت تحت يدي خردة محرك طائرة نفاثـة لأبحـث بينهـا لعلـي أحـد مـا يركـب مكان القطعة.

قال السائق:

- إذا كان أجل هذا الجريح لم يأتِ بعد ستركب إن شاء الله.

أدخل المصلح يده بين القطع الصدئة وهـو يقـول "بسـم الله" ثـم أخـرج واحدة، نفض عنها الغبار، وضعها على طاولة العمل، بردهـا بالمـبرد الخشـن ثـم الناعم، (جلخها)، عمل لها عملة. أدخلها في مكان من محرك السيارة. ثم وقـف مقابل السيارة وصرخ فرحاً:

- إيه، ما شاء الله، كأنها تفصيل ياه...

جلس السائق في مكانه من السيارة قال المصلّح:

- النقود.

رد السائق:

- تعال إلى المشفى، اقبض نقودك.

- هذا يعني، احترقنا.

- لا تشغل بالك، تتأخر قليلاً. ولكن من المؤكد أنك ستأخذها... أرفـع مقدار الفاتورة وقابلنا بعد أن تقبضها.

- فهمت لماذا كان السائق لا يريد أن يتخلص من الإسعاف. لـو كـانت جديدة، لما احتاجت للتصليح بهذا القدر. وبالتالي تقطع رزقه. هذا ما فهمته من قول المعاون للسائق:

- ما يدفع لتصليح هذه الخردة لمدة ستة شهور يكفي لشراء سيارة إسعاف جديدة.

- يبدو أن السائق فهم أكثر مما تعنيه حرفية هذا الكلام.

- لا تطولها، سأنظر في أمرك.

- قال السائق:

- يا الله.

صاح المصلح من خلف السيارة.

- انتبه! لا تسرع. إنها قطعة نفاثة، الله يحميها. من الممكن بأن تفاجأ أن خردتك هذه تطير.

بتدوير مفتاح التماس، وضغط السائق على (المَرْشْ) اهتزت العربة، زعقت، رفعت أنفها في الهواء، سارت وهي ترتجف.

صرخ المعاون:

- نطير أم ماذا! دخيلكم!

قال السائق:

- حتى الآن، لا، ولكن من الممكن أن نطير.

حدثت هزة قوية

- هل هذا جيب هوائي.

- لا تمد ذراعك من النافذة ولاه.

- لماذا؟

- حتى الآن يسأل. سيصبح ذراعك جناح وتطير السيارة.

عُدنا ندور في أزقة المدينة المتعرجة الضيقة. قال السائق:

- (يقطعها من هالعادة) السافلة، لا تمشي، لا تمشي، بعدها إذا مشت لا تعرف التوقف... آخ.

- دخيلك ما الذي حدث؟

- هزة قوية أسقطت كل قطع المحرك.

- لا تقلها يا معلمي.

- لم يبق في السيارة ما يدعى محرك.

-كيف تسير؟

- ألم ننطلق بسرعة، إنها تسير الآن بقوة ذاك الانطلاق...

- إلى أين ذاهبون؟

- غير معروف، قاع جهنم مثلاً.

- ماذا سيحدث.

- من أين لي أن أعرف.

- دخيل الحمار... وهل يوجد مثل الحمار... لو حملته زيت نفط لما طار هكذا. يستعملون الحمار، عندما يذهبون لنزهة يصطحبونه معهم. من ناحية العناد فهو عنيد، ولكن مهما فعل، في النهاية يعود إلى اسطبله لا يمكن أن يفعل مثل هذا. لا تدري إلى أين ذاهبة. إذا ركبت الحمار وسرحت به فما عليك إلا أن تتركه يفلت نحو الإسطبل فيعود لوحده. عندما تصل إلى الباب "تك" يقف. لا يفعل مثل هذه، تذهب وتجيء من أمام باب المشفى دون اكتراث. لا يمكن أن تكون أرواح المواطنين مؤمَّنَة إلا إذا صنعوا سيارة إسعاف تدخل (الكراج) من نفسها.

قال السائق:

- ليس هذا وقت للهبل، انكب كل البنزين، ورغم هذا تطير. لو نصدمها في مكان ما ونوقفها ليس من طريقة أخرى لتوقيفها، زَوَدتُها.

قال المعاون متوسلاً:

- دخيلك! إذا كنا سنصدم فاختر لنا مكاناً جميلاً، مرتفعاً ويكشف البحر.

- ما قولك في شجرة؟

- لا بأس ولكني منحوس، الآن نصطدم في شجرة ايلنطس*. أو أحاص بري فيصبح موتنا فاجعة فوق فاجعة. إذا كان لا بد للإنسان إلا أن يصطدم بشجرة فلتكن مزهرة.

- تفوه. كنا سنصطدم بالجدار.

- الجدار مكتوب عليه: "مكان خاص لتبول الحمير"... انتبه لا تصطدم فيه فتنفعس السيارة وتغدو رقيقة وتلصق بالجدار فيظنّها المارة إعلان حداري لمعمل السيارات.

- بينما كانوا يبحثون عن مكان جميل وليّن مناسب لصدم السيارة وقعت هزة كبيرة أخرى أخذنا بعضنا إثرها - أنا والجريح - بالأحضان. قال الجريح:

- عفواً

الرجل لا يتنازل عن تربيته حتى وهو في طريقه للموت. كوني ميت لم أخرج صوتي قال السائق:

- الحمد لله أننا اصطدمنا ووقفت السيارة ومرت على خير

ذبابة الحمار الحبيبة، هل يموت الإنسان لو كان يعلم أن كل هذا سيقع له. جميل لو كانت انتهت عند هذا. لم يكفِ ما كنت أعانيه في حياتي، هناك ما ينتظرني بعد مماتي.

في رسالتي القادمة سأحكي لك ما وقع لي بعد ذلك.

---

* نوع من الشجر الحراجي. موطنه الأساسي الصين نقل إلى أوربا وانتشر بسرعة هناك لكونه سريع النمو وكثيف الظل. رائحته غير جيدة. (م)

مع تمنياتي بالنجاح والسعادة يا عزيزتي ذبابة الحمار.

مع محبتي وأشواقي

حمار ميت

الرسالة السادسة

كيف نقل الجرحى (بالتاكسي)

صديقتي الحبيبة ذبابة الحمار:

لقد شرحت لك في رسائلي السابقة مصاعب الموت. لا أقصد تحطيم معنوياتك نهائياً. أحكي ما حدث لي تماماً وبواقعية، بعدها تصرفي كما يحلو لك، اصبري إن أردت العيش، أو موتي إن أردت التخلص...

أبدأ الحديث من حيث توقفت في الرسالة الماضية. صدم السائق مقدمة سيارة الإسعاف صدمة لينة بشجرة. المعاون أول من نزل من الإسعاف، وقال:

- ليس فيَّ أي عطل فني.

قال للسائق:

- ماذا ستفعل الآن يا معلمي؟

- الله يلعن الشيطان، في الداخل ميت وجريح ينزف.

- لنوقف سيارة عابرة.

تمر السيارات من يميننا ويسارنا (وظ.. وظ..) دون توقف.

قال السائق:

- لا أحد يقف لنا.

- لماذا؟ أمن أجل النقود؟ يأخذ نقوده من المشفى.

-أي غبي يحمل جريحاً في سيارته لتتصبّغ بالدم. سائقو هذه الأيام لا يُركّبون معهم من لا يعجبهم من الأحياء. أنا كنت سائق (تاكسي) قبل أن

أعمل في الإسعاف. أنا (فنار بهجي)* متعصب. لوَّنت داخل السيارة، خارجها، فرشها، هيكلها وعجلاتها بأعلام[٦] فنار بهجة صارت مثل العروس. أنتظر على الموقف. يأتيني زبون. أنظر إلى شكله. إذا لم يدخل مزاجي أدبره قائلاً " عندي زبون يا صاحبي" يأتي آخر، أصرفه. أحياناً يتوجب عليّ أن أقوم بمناورة عودة معه فأسأله "إلى أين ذاهب؟" إذا كان ذاهباً إلى مكان على مزاجي، آخذه. إذا كان ذاهباً إلى مكان قريب أو طريقه خربانة أو لايعجبني اسمه لا آخذه أيضاً... وإذا كلّب الرحل وأصبحتُ مضطراً لإيصاله، آخذه بالحديث حتى أوصله إلى سؤاله عن حزبه أو فريقه الرياضي. الحزب غير مهم، من المعيب واللاديمقراطية أن أتكلم إذا لم يكن من حزبنا، أما إذا كان من أنصار فريق خصم للفنار بهجة، أقود السيارة ببطء لكي لا يصل إلى المكان الذي يريده في الزمن المناسب، ثم أقف في مكان خاو، وأقول خربت السيارة وأنزله منها. أختار في هذه الحالة مكاناً يسير فيه المقلّب على أكمل وجه، بحيث لا يجد سيارة ويكمل مشواره ماشياً. هذه صنعة ليست سهلة، كل شخص ممكن أن يقود سيارة، ولكن الشغلة، في معرفة هذه الأشياء.

سأل المعاون السائق مرة أخرى:

- ماذا ستفعل الآن.

قال:

- سهلة، لو وقفت إحدى هذه السيارات... ننظر إلى الشعار المعلق (بالتاكسي). عليك أن تمثل دور النصير للفريق المعلقة شارته في السيارة، ثم تبدأ الحديث "لعب جماعتنا في الأسبوع الماضي (كويس)، لكن الحظ لم يحالفهم..." أو بعبارة أخرى من هذا القبيل، ويكمل الرحل الباقي. بعد لحظات تجد نفسك

---

* أحد أندية الدرجة الأولى (فنار بهجة).

[٦] لكل نادي علم خاص به يحمل ألوانه.

أقرب إلى الرجل من أقربائه. من الممكن ألا يأخذ منك الأجرة. عملنا الآن إيقاف سيارة. يا الله، انزل إلى الطريق وحاول إيقاف (تكسي)!

نزل المعاون إلى وسط الطريق. رفع يده لإحدى السيارات التي تذهب وتجيء (وظ وظ). كانت سيارة خاصة. أخرج الرجل يده من الشباك ملوحاً. قال المعاون بينما كان الرجل يلوح بيده وهو ذاهب:

- أماه، الرجل سلّم علينا.

قال السائق:

- رد السلام ولاه. السلام لله. إذا واحد سلّم، عليك أن ترد. حتى إذا سلّم عليك عدوك اللدود، عليك أن ترد بـ "عليكم السلام".

أعطى المعاون إشارة توقف لسيارة أخرى فمدت من نافذة السيارة رِجْلُ امرأة. كلما ألح المعاون بتلويح يده، كانت رجل المرأة تُلّوح أيضاً. غَضِبَ المعاون، قال:

- واخ سافلة، تسلم برجلها...

قال السائق:

- لا تزعل هذا السلام ليس لك، الرجل الذي في داخل السيارة هو الذي كان يسلم.

بينما كان المعاون يقترب ليوقف سيارة قادمة، قال له السائق:

- لا تُتعب نفسك. هذه لا تقف.

- لماذا يا معلمي؟

- أولاً، سيارة خاصة. ثانياً، انظر إلى الرجل الذي يقودها. إحدى يديه على المقود والثانية على كتف المرأة بجانبه! لو وضعت إشارة رسمية أمامها لقفزت من فوقها مثل حصان سباق يجتاز حاجزاً. إذا خرج زوج المرأة التي في السيارة عندها لا أدري...

وكما قصد السائق حصل. عندما اقتربت السيارة منا، ازدادت سرعتها حتى أن المعاون انكب على الأرض ليتجنب تأثير ريحها..

قال المعاون:

- (فرمان) سلطاني لا يوقف هؤلاء... ماذا سنفعل؟ الرجل ينزف سوف لا أرد. سأخرج أمام أول عربة تمر.

لم يكد ينهي كلامه حتى خرجت سيارة مثل العاصفة. كان المعاون سيرمي نفسه أمامها لولا أن مسكه السائق من يده.

- أمجنون أنت؟ الأغرار مثلك يظنون أن السائق يكفيه أن يتعلم القيادة ويأخذ فكرة عن المحرك.

- طبيعي، وقواعد المرور أيضاً.

- هذا لا يكفي حتى تصبح سائقاً جيداً... ما عليك أن تتعلمه ما هو خارج القاعدة. وهل يمكن الوقوف أمام تلك السيارة؟ إنها دليل عزرائيل... هذه السيارة تدور في شوارع المدينة على ابن آدم لتأخذه تحت عجلاتها. قبل كل شيء انظر إلى لوحتها ثم لونها.

ما لوحتها؟

- من التي يسمونها البلاء الوطني.

- لونها؟

- يغطط القلب.

لم يكد يتحرك المعاون لإيقاف سيارة من بعيد حتى أمسكه السائق من يده وشده وصاح به:

- أجننت؟

أتت السيارة باتجاه الإسعاف تصفر مثل سهم. قفز كل من المعاون والسائق خلفاً، أنقذا روحيهما.

قال المعاون:

- أنا أعرف أن الحيوانات تَكْلَب. ولكن هذه أول مرة أرى فيها سيارة كَلِبَة.

قال السائق:

- ليست السيارة هي الكلبة بل الذين بداخلها كلاب. إنهم من أولئك الذين "يعيشون بسرعة".

- من هم أولئك الذين يعيشون بسرعة؟

- أولئك البليات ذوو الأرواح، الذين يربون على دلال أمهاتهم وصرف نقود آبائهم التي تأتيهم من دون تعب. يعيشون بأقصى سرعة... لماذا يعيشون بسرعة؟... في الألف شخص في هذه الدولة يعيش واحد فقط ويظن الباقون أنهم يعيشون. هذا الواحد سريع جداً لأنه بدل من ألف... ضع في سيارة الإسعاف المهترئة هذه بدلاً من كل ألف حصان ألفاً. كيف تسير؟ هكذا يسيرون.

كانت ثمة سيارة آتية، لا يقال عنها آتية لأنها أخت الريح، منطلقة في الطريق مثل الرصاص. مرة إلى هذا الطرف ومرة إلى ذاك راسمة خطاً متعرجاً، قال السائق:

- من الممكن أن تقف هذه السيارة... ليس لها مستقبل، لأنهم ملؤوا خزانها بالعرق بدلاً من البنزين. غداً ستقرأ في الصحف أن سيارة سقطت بالبوسفور.

سألني الجريح الذي بجانبي:

- عفوكم، لماذا أنتظر؟

قلت:

- أعذروني، أنا لا أستطيع الكلام لأنني ميت ولكن لم يخرج لأن صوت الأموات لا يُسمع.

لكون المعاون شاباً حساساً. فهو يريد أن يفعل شيئاً لإنقاذ الجريح لذلك كان يُخَبطُ دون جدوى. قال:

لأتصل من مكان ما هنا بالمشفى على الأقل ليرسلوا لنا سيارة نأخذ بها الجريح.

قهقه السائق حين سماعه هذه العبارة كأنه سمع طرفة. لشدة ما ضحك (تدعبل) على الأرض حتى كأنه أصيب بنوبة عصبية.

- ماذا حدث؟ ما هنالك يا معلمي؟ لماذا تضحكون؟

كان السائق يتأتى بأشياء مثل (ت... تل... تلفون... هاء) ثم تخلص من زوبعة الضحك، وسأل:

- ألا يوجد هاتف؟

- إذا كان على وجوده فهو موجود. ولكن ما فائدته إذا لم ينفع للاتصال... واخ واخ واخ... حتى تتصل وتتكلم مع المشفى لا يبقى في جسد الجريح نقط دم.

- صحيح، من دوختي، ظننت أنه يمكن الاتصال بهواتفنا.

نط السائق قائلاً:

- يا هوه... كيف لم نر هذه السيارات كل هذه الفترة. أنظر. إنها واقفة في ظلال الأشجار... اذهب لعلك تجد صاحب ضمير يساعدنا.

ذهب المعاون. عند عودته كان يبدو اليأس على وجهه

قال:

- في تلك السيارات أناس من طبقة احتماعية راقية جداً.

- كيف عرفت.

- كل هذه الفترة وأنا أراقبهم. من خلال مراقبتي لم أرَ أياً منهم في وضع طبيعي... هذا يعني أنهم من الطبقة الاجتماعية الراقية.. لا أدري ماذا يسمونهم؟ طبق القتسطة على ما أظن.

- ليس طبق القتسطة يا بني. طبق القشطه؟

بعد أن عملا فترة طويلة على إيقاف سيارة في الطريق، وقف (تكسي) أخيراً. عندما فهم السائق أنهما ليسا من الزبائن، وأنهما موظفا الإسعاف التي تحمل مواطنَيْن عملاً حادثاً فقال:

- مشغول، ذاهب لعند زبون.

قال سائق الإسعاف:

- نحن أبناء مهنة واحدة. لا تعمل فينا هكذا نقاصة. أخذت رقم سيارتك والباقي تعرفه أنت.

قال سائق (التاكسي) بعد هذا الكلام:

- يا الله لم يطاوعني ضميري على ترككم، لو دفعتم أم المئة أوصلكم إلى أقرب مشفى.

بينما كنا نضع الجريح في السيارة. بدأ سائق (التاكسي) يصرخ:

- لا يصير. رجعت بكلامي. انصبغت السيارة بالدم.

سأله سائق الإسعاف:

- من أي نادٍ أنت؟

- بشكطاشي*.

- ولاه يا صاحبي، هل يمكن أن تكون بشكطاشياً وتترك جريحاً بشكطاشياً وسط الشارع؟ ولا تسأل من يكون هذا الجريح؟ ألا تعرف أن هذا الجريح هو جناح فريقنا الأيمن؟

---

* نسبة إلى اسم أحد أندية الدرجة الأولى. نسبة إلى اسم أحد أبناء أحياء اسطنبول.

وقف سائق الإسعاف أمام الجريح كيلا يرى وجهه وهو يتكلم.

قال سائق (التاكسي):

- واخ واخ ما كنت أعرف... ثم جلس خلف المقود.

- كنت قل هذا من الأول يا أخي... آخذه على رأسي. ما السيارة؟ فداؤه، قل بشكطاشي قبل أن تُركبه.

ذبابة الحمار الحبيبة، هذا أنت ترين. إذا كان على الموت فقد مت، ولكن لم أمت رسمياً حتى الآن.

مع أجمل تمنياتي

حمار ميت

الرسالة السابعة

كيف ضربت (التاكسي) عمود الكهرباء

عينيّ ذبابة الحمار:

وضع سائق الإسعاف والمعاون، الجريح في (التاكسي) خادعاً السائق على أنه الجناح الأيمن لفريق البشكطاش. سندّاني بجانبه كأنني حي، وجلسا بجانب السائق. أصبح في السيارة ثلاثة أحياء، وجريح لا نعرف لحظتها فيما إذا كان لا يزال حياً أم لا، وميت هو أنا.

- ستفوح رائحة الميت من الحر.

قال سائق الإسعاف:

- لن يفوح شيء... ثم أي حر!... الجسد جف منذ زمن.

يبدو أن كلام السائق صحيح. كنت أحس أنني أجف ببطء كما الفسفس في الشتاء عندما لا يبقى في داخله شيء. كدت أسلق لشدة الحر، حر الخارج، حر الداخل من المحرك وحر صفيح السيارة.

الجسد الذي سيخرجونه من السيارة ليس جافاً بل مسلوقاً.

مرت السيارة بموقف (سرفيس)، في الموقف أربعة صفوف من الركاب نهايتهم غير واضحة بالنسبة لنا.

ثمة أصوات:

- داخ، أغمي عليه.

أوقف شرطي المرور (التاكسي) ووضع بجانبنا رجلاً سميناً أصابته ضربة شمس جراء انتظاره الطويل في الموقف.

أصبح عددنا في المقعد الخلفي ثلاثة. مغمى عليه، جريح، ميت، قال الرجل المغمى عليه:

- لو ما عملت (نمرة) الإغماء هذه لأغمي علي من شدة الحر.

غضب سائق (التاكسي) كون إغماء الرجل السمين (نمرة). قال سائق الإسعاف:

- لا تهتم، لا يتوافق التعصيب في الحر مع الجلوس خلف المقود. الزبد يفور من فم السائق حتى أنه لو نودي "يا روحي" لرَدَّ "تطلع روحك". السمين رجل ثرثار. إذا بدأ بالكلام لا يسكت. قال أنه دخل فحص قيادة السيارة، نجح ثلاثة أشخاص من المتقدمين الثلاثمئة. كان الأول على الناجحين الثلاثة. قال أيضاً، إن أصعب مرحلة من الفحص كانت تمرير السيارة بين الأعمدة بشكل متعرج دون إسقاط أي عمود. الرجل السمين يحكي وسائق (التاكسي) يهز برأسه يميناً ويساراً غاضباً. ثم يكملها السمين بقوله:

- الذين يسمون أنفسهم سائقين لا يستطيعون المرور من بين الأعمدة دون أن يسقط منها شيء.

عندها غلى السائق غضباً:

- ماذا... لا يمروا؟... أهكذا من يسمون أنفسهم سائقين؟ أنا... أنا؟ أنا أمررها بين عمودين بعرض السيارة.

قال سائق الإسعاف مهدئاً:

- سبع. تمررها. شهم، تمررها!...

لكنه ازداد غضباً

- ماذا يعني؟ وهل هذه شغلة صعبة؟ ماذا يقول هذا ياه؟ ولاه أنا، أمثالك أزرعهم مثل الشتل وأمرر السيارة وهي ترقص الفوكستروت[٧].

---

[٧] نوع من أنواع الرقص الغربي الرباعي الإيقاع.

غضب الرجل السمين

- يا صاحبي، لم نقل أنك لا تستطيع تمريرها، تمررها، ولكن بصعوبة.

ضَرب كل من حر الجو وحر محرك السيارة وحر صفيحها، عقل سائق (التاكسي)

- ماذا... بصعوبة، هذا؟ أنا أصّف أمثالك صفين وأمرر السيارة دون أن ألمس ذيل أي منكم.

- يا صاحبي، هل هناك من سمَّعك، أو قصدك بحكي؟ لم نقل شيئاً يخصك أنت كل ما قلناه "من يسمي نفسه سائقاً".

- ماذا يعني هذا؟ أنا من يسمي نفسه سائقاً اترك لي مسافة بقدر السيارة وزيادة إصبعين لأمررها.

- الذي قصدته أن في هذا العمل صعوبة..

- حتى الآن يحكي... أتراهن؟

- ياهوه.

- ما بدها حكي... تراهن؟ بجد.

- يا صاحبي

- ما في صاحب، مني خمسة، ومنك واحد...

- يا أخي

- لا تطولها... أنا أمرر هذه السيارة على السراط المستقيم ولاه... غَضَب السائق يتزايد... الطريق مناسب، السيارة تطير... كأنهم تراهنوا... اشتد غضب السائق، وصرخ:

- مني خمسة ومنك واحداً خمسة لواحد... أتراهن؟

يضغط على البنزين...

بدأ المحرك يقرقع. كم جميل لو سارت السيارة بشكل مستقيم. لكن الطريق مزدحم، ولكي يرينا السائق مهارته، كان يذهب إلى يمين الشارع ثم إلى يساره... يمر على يسار (ترام) ثم من يمين (باص) بعدها من أمام شاحنة، إنه يسير بشكل متعرج إلى الأعلى والأسفل كأنه يقفز على (الترييولين).

كان يقول:

- دخيلك، اصطدمنا...

عندما مر عن يسار أحد المشاة وفتل أمامه لم يبق مقدار شعرة حتى يضرب (بالترام).

- واطي من لا يدفع خمسة مقابل واحد، رهان تمرير السيارة في مكان لا يزيد إصبعين عنها، حتى لو بقي مقدار شعرة لمررتها.

- دخيلك يا أخي، تمررها. وا لله، با لله تمررها، ها نحن رأينا... لقد مررتها.

غَضَب السائق جعله لم يفهم كلاماً. كان يصيح - بينما كانت شرطة المرور خلفه تزمر (يو...يو).

- أنا أضع مقابل الواحد خمسة. أرني رجولتك، إن كنت رجلاً...

- يا أخي ربحت الرهان أنت... بهدوء كرمى لله...

- سحبت كلامي يا أخي...

لكن السائق لم يعد في وضع يبدو أنه سيستمع لكلام. يتجاوز السيارات بالجملة.

قال الرجل السمين بتوسل:

- أنا سأنزل هنا.

السائق لا يعير انتباهاً لا للرجل السمين ولا لشارات المرور، حمراء كانت أم خضراء. خربط الشارع كما لو أنه فرخ ديك بري، يغبر ويدخن.

- خمسة مقابل الواحد، أتراهن؟

على ما يبدو أن السائق لن يقف حتى ولو وصل الحدود البلغارية. لقد أثر الحر على عقله. ألا يَخرب محرك هذه السيارة، أو تنفجر لها عجلة. أو ينفذ وقودها، لو كان الإنسان على عجل وركب سيارة لما مشى مئتي خطوة إلا ويخرب محركها أو تنفجر لها عجلة أو ينفذ بنزينها أو زيتها أو ماؤها..

يُدور المقود إلى أقصى اليمين ثم اليسار وهو يصيح:

- خمسة لواحد!

تطارد سيارات رجال الشرطة في أفلام المغامرات سيارات المجرمين مثل ما يفعل سائق (التاكسي). كان ينبعث من السيارة، عجلاتها، فراملها، محركها، أصواتاً لم أسمعها من قبل.

- ون ون... ززززت... درررر.

يقفز مَن في يمين السيارة لينزل جالساً في حضن من هو في اليسار وكذلك من في اليسار يأتي ماسكاً برقبة من في اليمين... صرنا مثل شوربة.

كانت السيارة (نط نط) تمشي حجلاً. شيء قرقع. شيء ضربني على رأسي، السيارة ذهبت إلى الأمام أولاً ثم عادت إلى الخلف، نظرت وإذ بالسيارة قد انقسمت إلى نصفين. عمود كهرباء منتصب وسطها. العمود قسم السيارة إلى نصفين... أنا ضمن هذه القرقعة مُتُ مرة أخرى. ولأنني مت قبل هذه المرة لم أستمتع بطعم الثانية. المساكين أمثالنا يعيشون مرة، هذا إذا عُدت عشية، لكنهم يموتون مرات.

أتخيل السمين الثرثار.. لم يعِ ما حصل. فقال:

- عندما ركبنا السيارة لم يكن هذا العمود فيها يا هوه.. من أين دخل بيننا.

جلس سائق (التاكسي) في المكان الذي ارتمى إليه كالجنين في رحـم أمـه، فخذاه يلامسان بطنه ويصيح:

- أضع مقابل الواحـد خمسـة، خمسـة لواحـد... أنـا؟... أ... أنـا؟ أأنـا لا أمررها؟ يكفيني مقدار إصبعين...

كنت هذه المرة محظوظاً فالحادثة وقعت في وسط المدينة. وصلت الشـرطة بسرعة. ملؤوا بنا (تكسي) أخرى... لم أستطع ولا بـأي شـكل الدخـول إلى مـا تحت، وقطع علاقتي بما فوق، التراب.

كأن ما يتحمله الواحد منا وهو حي لا يكفي، ليتحمل وهو ميت.

أتركك بعافية يا أختي ذبابة الحمار، وأتمنى لك دوام السعادة.

حمار ميت

الرسالة الثامنة

(الحمار الميت يحكي عن سبب موته)

أختي وعيني، ذبابة الحمار:

بالحق، أنا أحكي لك عن موتي، لكنني نسيت أن أحكي لك عن سبب موتي. أعرف أنك تحبين الكلمات المنتقاة والمترادفات، وذات المعاني الكبيرة.

أتذكرين يوم كنت عاطلاً عن العمل وجئت إليك. كنت أحَفُّ من الجفاف. وأي كلام قلت يومها، ولكني لم أُحَصِّل قرشاً.

قال أحد العظماء "ليس ثمة من لا يعصي، ولكن عليك أن تجيد الطلب".

هذا الكلام العظيم إما لموليير أو روبسبير أو الملك لير أو هتلر أو مشهدي جعفر، لست متأكداً، لكن في النهاية اسمه الثاني حرف "الراء".

ذهبت إليكِ واضعاً في رأسي هذا القول العظيم ووقفت أمامكِ لاوياً رقبتي وقلت:

- توبي أورنت توبي[^8]....

لحظتها بدأت بالبكاء وأخرجت كل ما كان بجيبك وأعطيتنيه. خرج أحدهم وقال: "لا تناقش لا الأذواق ولا الألوان." ماذا في هذا الكلام؟ لو كنت أنا قائل هذا الكلام لدخل من أذنك هذه وخرج من تلك... هذا يعني أن البشر

---

[^8]: (to be or not to be) وردت بالنص بالحروف التركية حسب اللفظ الإنكليزي، لذلك أدرجتها بالعربية حسب اللفظ الإنكليزي. (م).

لا يعطون أهمية لمعنى الكلام المقابل بل لارتفاع المكان الذي قيل منه. يعني لو تكسرت مدخنة لعُد كل صوت من أصوات تشققها معجزة ربانية.

أشكر الله على أنه في تلك الدنيا التي غادرتها نوعين من البشر النوع الأول مجانين لا مسؤولية لهم. والثاني الملوك والرؤساء...

بفرض أنني واحد من رؤساء الجمهوريات الذين لا يفعلون، وليسوا مسؤولين عن شيء. لو سعلت، سيقولون:

– ما هذه السعلة المقدسة! ويسجلون السعلة على شريط.

إذا فتحت فمي متثائباً، سيقولون:

– الله، ما أجمل هذه (الأريا)[٩].

ويسرعون لمحاولة (تنويت) تثاؤبي.

عزيزتي، عندما نجلس معاً، كم كنا نستهلك من ذاك الكلام الكبير، نصرفه كصرف فراطة النقود... كلامنا مثل اللؤلؤ لم يُقابل بحجر.

افتحي أذنيك! سأقول لك قولاً مأثوراً مهماً جداً من وحي الدار الآخرة... "الولادة سهلة، لكن الموت صعب." المولود يولَد من قبل الآخرين لكن الميت يموت لوحده.

لم يكن قد خطر ببالي الموت. أحب الحياة كأي شخص، ولكن الحب لا يكفي... طلبت من مديري خمسين ليرة سلفة. سألني:

– ماذا ستفعل بها؟

خطر ببالي أن أقول له "سأصنع طائرة ورقية وأطيّرها."

قلت:

– عليّ دين لأحدهم، سآخذها منك وأعطيه إياها.

قال:

---

[٩] أغنية درامية طويلة في الأبرا. (م)

- متى؟
- اليوم، الساعة الثانية بعد الظهر سيأتي ليأخذها.
- في تلك الساعة تعال وخذ خمسين ليرة...
- ألا يمكن أن تعطونيها الآن؟
- لا يمكن.
- لماذا؟

بعد أن هز رأسه هزة فلاسفة قال:

- انك لم تستطع توصل الرأسين لبعض لأنك لا تفهم هذه الأمور. ممكن أن يموت ديّانك هذا قبل الساعة الثانية بعد الظهر، فتتخلص من دفع دينك - الأعمار بيد الله - ممكن أن تموت أنت فأخلص أنا من دفع الخمسين ليرة. من يعرف من الذي سيموت ومن الذي سيبقى حتى الساعة الثانية بعد الظهر.

لويت رقبتي وقلت.

- من أين لي هذا الحظ يا سيدي؟ أنا منحوس، الأعمار بيد الله، أليس من الممكن ألا يموت دياني ولا أموت أنا، ومن الممكن أن تموتوا أنتم، فلا أستطيع أخذ الخمسين ليرة.

صارت الساعة الثانية بعد الظهر. لم يمت ديّاني، مديري ولا أنا... ولكن مديري اختفى في تلك الساعة...

خرجت أبحث عمن أفرغ له ما في داخلي. أليس لنا أصدقاء مثقفون، أصحاب أفكار تقدمية، يرفعون الكأس في وجه الظلم معلنين عليه التمرد صارخين "فلتحيا العدالة"؟... ذهبت إلى بيت أحدهم، أقول في نفسي لعله يساعدني... البيت مزدحم بالضيوف، حكيت ما جرى لي. التفوا حولي، استمعوا إليّ باهتمام.

حكايتي مؤلمة، حتى إنني مسكت نفسي بصعوبة عن البكاء... **ولكن الذين يستمعون إليّ** كانوا يضحكون، حتى أن ثمة فتاة جميلة، لكثرة ما ضحكت على حكايتي أفرغت مشروبها في رقبة الرجل الذي كان يسند كأسها إلى كتفه. مع أنني كنت أتكلم أشياء جدية كانوا يقولون الآن.

- اكسانتريك*

- للغرابة.

- شيء لا يصدق!

- سُربرايز**

- ظريف.

مع أنني كنت أتكلم عن أحزاني، ضيقي، غضبي، تَحمُّلي، فأسليهم بما كنت أعاني منه.

رأيت بينهم امرأة سال الدمع من عينيها قلت لنفسي "هذا نموذج للإنسان الحساس" ولكنها سرعان ما قالت:

- أيّ، دخت، نزلت دموعي لشدة الضحك.

كان يضحكهم كل ما أقوله. قالوا عندما كنت مغادراً:

- يا الله كم ضحكنا وسُررنا، تفضلوا غداً واحكوا لنا من هذه الحكايات.

كنت يائساً. ذهبت في المساء التالي، إنها آخر محاولة... لكنهم كانوا يجدون كل ما أقوله مضحكاً. في النهاية قال أحدهم:

- دخيلك كافي.

---

* كلمة فرنسية بمعنى غير عادي أو غريب. (م)

** مدهش.

فرحت... نهايتها وجدت من فهمني بينما كنت أفكر على هـذا النحـو. ألا يقل:

- أي.... من الضحك. عذراً، على وشك أن أدوخ.

سكتُّ. تفحصتهم جميعاً. سيغمى عليهم من الضحك فعلاً.

صرخت:

- لِمَ ضحككم؟

قالوا:

- حياتك، كل شيء فيك... وهل ما حكيته جرى لك؟

سمعت أصواتهم عندما كنت خارجاً من الباب:

- ما أجمل طريقة حكيه.

- حكى أشياء غريبة جداً.

- ما حكاه صحيح يا ترى؟

- لا يا روحي يؤلف من أجل أن يضحكنا...

عينيَّ الاثنتين، ذبابة الحمار، أنت تعرفين أن حياتي كلها مرت هكذا، تزداد عليَّ صعوبة العيش، يضحكون عندما يتوجب عليهم البكاء. انتبهي لا تقولي لهم أنني مت لأنني لم أستطع أن أعبر عن ضيقي وحزني واضطرابي سيضحكون قائلين "يا الله كم اكسانتريك إذا أردت أن تريحيني قليلاً وأنا هنا، أرجو أن تلسعيهم بإبرتك الحادة...

أقبل أجنحتك البارقة الألوان تحت أشعة الشمس.

مع المحبة.

حمار ميت.

الرسالة التاسعة

(كيف ينقل الجرحى من مشفى إلى مشفى...)

ذبابة الحبيبة:

كنت أظن أننا أتينا إلى نهاية الورطة. وإذ عليّ أن أذوق الكثير. صدّقي أني لا أبالغ أو أؤلف بقصد تخويفك من الموت.

هل تكتبين من ذكر كلمة الموت بشكل مستمر يا ترى؟ لي غاية من كتابتي لك من المقبرة هي إبعاد شبح الخوف من الموت عنك. كيفما كان ليس لأي ذي روح على سطح الأرض مهرب من الموت، فَلِمَ الخوف إذاً؟ ممكن من خلال رسائلي التي أرسلتها من المقبرة أن تأخذي الموت من الجانب المسلي، المضحك الشبيه بالخروج في نزهة...

لنعد لسفرتنا... كلما سخن المحرك تبخر الماء حتى انتهاء ماء السيارة في الطريق... خرج الثلاثة للبحث عن الماء حيث كنا خارج المدينة.

صاح المعاون من بعيد:

- وجدت... هنا يوجد بركة ماء...

أحضروا الماء بواسطة وعاء. فهمت - من خلال كلامهم - أن الذي وجدوه طيناً وليس وعاء. فور وضعه في الخزان قفزت صغار الضفادع إلى أعلى من تأثير الحرارة، وهكذا استطاعوا تسيير السيارة إلى عند صنبور وملؤوها بالماء. انتهى البنزين. أخذوا بنزين. نفّست العجلات، نفخوها. بعد قليل انفجرت العجلة. تعاونوا على رقعها.

بعد مجموعة حوادث تملأ كتباً. وصلنا إلى أول مشفى. كان قد أصبح الوقت ليلاً.

باءت عمليات بحثنا عن الطبيب المناوب بالفشل. مددوني حانب الجريح على الأرض. نظرت الممرضة إلى الجريح الذي كان ينزف وسألت:

- متى جرح؟

رد على السؤال سائق الإسعاف المتفاني من أحل إنقاذ حياة الرحل.

- قبل الظهر.

- من أسعفه...

أحاب السائق بأننا منذ الصباح في الطريق. ونصحها ألا تركب سيارة إذا كان عندها عمل مهم.

سألت الممرضة:

- وهل الدماء تسيل من الرحل بهذا الشكل منذ الصباح؟

قال السائق:

- نعم.

نقرت الممرضة بإصبعها على خشب الطاولة كما تفعل النساء حرزاً من عين حسود وقالت:

- ما شاء الله. ما أغزر دمه، الله يحميه من العين..

لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً لعدم وحود طبيب مناوب. ذهبنا إلى مشفى آخر، الجريح محظوظ، بعد ساعة بحث وحدوا الطبيب المناوب. قال المسكين بعد أن عاين الجريح:

- يا حرام، لا أستطيع عمل شيء. ليس لدينا أي علاج يقطع الدم السائل أو يُسَّيل الدم المقطوع في المشفى. ليس لدينا سوى الأسبرين والكحول واليود والقطن. أعطيكم منها إن أردتم. لعلكم تحتاجونها.

ولإنقاذ سمعة المشفى أضاف الطبيب

- هناك الكثير من الأدوية الأخرى بالطبع... أدوية السكر، القلب، الروماتيزم...

قال السائق:

- الرجل يموت أمام عيوننا... لو استطعنا إيصاله إلى مشفى الإسعاف. ليمت هناك أفضل...

قال الطبيب:

- لا فرق بين الموت هنا أو هناك.

قال السائق:

- يموت هنالك براحة أكثر.

سأل الطبيب:

- متى أصيب؟

- قبل الظهر.

- وهل ينزف من حينها بهذا الشكل.

- لا، كان ينزف بشكل أغزر قبل ساعات ولكنه قل مع استمراره.

- قال كالآخرين:

- ما شاء الله. رجل غزير الدم.

ذهبنا إلى مشفى آخر كان سيتركنا السائق ويذهب عندما علم أنه سيقبض أجرته من مشفى البلدية ولكنه لم يستطع. كانوا يصطحبوني معهم لعدم قبول المشافي للموتى.

الجريح محظوظ وجدنا في المشفى الثالث طبيباً مناوباً وممرضة وأدوية. حتى إن الطبيب المناوب قال:

- وجود هذه الأشياء الثلاثة مجتمعة في مكان واحد أمر صعب جداً. لقد صادفتم يوماً متميزاً.

أرادوا تسجيل هوية المصاب قبل معاينته. بحثوا عن موظف القيود فلم يجدوه.

قال السائق مقترحاً:

- خذوه إلى غرفة العمليات. ثم تسجلونه فيما بعد.

عندها غضب أحد الموظفين وقال:

- لا أحد يمد يده على مريض غير مسجل. وإلا كيف سنصرف له الدواء. صرف الدواء دون تسجيل يؤدي إلى باب سوء التصرف. غضب السائق عندما ذهب البعض للبحث عن موظف القيود و لم يعودوا، وقال:

- لو كنا حملناه على ظهرنا لأوصلناه إلى مشفى الإسعاف الأولي منذ زمن.

في تلك الفترة كان موظف القيود عائداً من نفسه لينام. جلس إلى الطاولة مثل أي موظف مخلص لعمله، ثم وضع نظارته بهدوء، فتح الدفتر بدقة، سحب قلمه، بدأ التحقيق:

- اسم المصاب؟

- قال السائق:

- من أين لي أن أعرف، أنا سائق إسعاف البلدية. أخذت الرجل إلى السيارة بعد إصابته بحادث مرور... تعطلت السيارة في الطريق ونتجول منذ الصباح... وأخيراً وصلنا إلى هنا.

قال موظف القيود:

- طيب، طيب، نكتب مجهول الهوية وينتهي...

قال المعاون:

- يا أخي، أمن أجل هذا ننتظر كل هذا الوقت؟
قال الطبيب انتهت المعاملة الرسمية. لكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً بدون أشعة، وجهاز الأشعة عندنا مُعَطّل.
- إذا كان لا يوجد أشعة فلماذا القيد؟ فوقها أضعنا كل هذا الزمن؟
أجابت رئيسة الممرضات:
- القيد شيء والعلاج شيء آخر. إننا نرفع شهرياً جدولاً بعدد المرضى الذين دخلوا مشفانا، لو ما عملنا قيداً فليس هناك جدول.
قال موظف القيود:
- صحيح إن جهاز أشعة مشفانا خربان ولكن عَمَل القيد على ما يرام.
قال سائق الإسعاف لسائق التاكسي:
- يا صاحبي كيفما كان نقودك تأخذها، إما من مشفى الإسعاف أو مشفى البلدية. أو تجد أحد أقرباء المصاب فتأخذ منه... عملت خيراً، نقلناه من مشفى إلى مشفى حتى هذه الساعة المتأخرة... فتممه.. وأوصلنا إلى مشفى الإسعاف الأولي.
- أين سأجد أقرباء المصاب يا هوه.. أنا أريد نقودي.
- سهلة، اعتبر نقودك في جيبك...
لم تحتمل أعصابهم وجود ميت بينهم فحشروني في (الباكاج).
قاد سائق (التاكسي) سيارته وهو يتكلم:
- درنا كل هذه المشافي، في بعضها لا يوجد ممرضة، في بعضها الآخر لا يوجد طبيب وإذا وجد الطبيب والممرضة فلا يوجد علاج، وإذا وجد الآخر فليس هناك جهاز أشعة وإذا وجد فمعطل، كأننا سنجد هذه الأشياء مجتمعة في مشفى الإسعاف الأولي.
قال السائق:

- موجودة، حتى لـو كـانت غـير موجـودة نتدبـر الأمـر. نربـط الجريـح بخيط، بحبل، أو(شرشف) ونقطع نزف الدم ريثما يأتي الطبيب. مـن الممكـن أن يختنق المريض من الضغط ولكن لا نتركه ينزف...

قال سائق (التاكسي):

- أنا لا أفكر في النقود، لأنني لو كنت قد شـغلت عـداداً منـذ ركوبكـم لسجل مئتي ليرة. أنا شـخص فضـولي. والفضـول دفعـني لمعرفـة أي مشـفى فيـه الطبيب والممرضة، والدواء والأشعة كلها مجتمعـة، لهـذا أنقلكـم مـن مشـفى إلى آخر. وإلاّ كنت من زمان أنزلتكم من السيارة وسحبت.

وصلنا إلى باب مشفى الإسعاف الأولي. أنزلوا الجريح حيث كانوا، دلـوا أرجله من النافذة حتى لا يتسخ فرش السيارة بـالدم. لم يفتـح أحـد (الباكـاج) الذي حُشرت فيه. نسوني هنــاك. مـاذا أعمـل؟ لـو صحـت "أنـا هنـا" لا أحـد يسمعني لأنني ميت. لو فتح (الباكاج) ورآني، من يعلم ماذا سيفعل؟

بينما كنت أفكر بما يمكن أن أفعله - مع أنني لا أستطيع أن أفعل شـيئاً - كانوا يحملون الجريح علـى النقالـة انفجـر زعيـق خلـف السـيارة. فتحـت بـاب (الباكاج) الذي كان مفتوحاً قليلاً، ونظرت دون أن ألفت انتباه أحد. القادمون كانوا دورية شرطة. نزلوا بسرعة وطوقوا النقالة التي كان عليها الجريح. سـحب أحد رجال الشرطة مسدسه وصاح:

- لا تتحركوا..

صاح شرطي آخر:

- لا تتحركوا..

قال ثالث:

- ارفعوا أيديكم..

أسقط النقالة حاملوها لشدة خوفهم فجرح الجريح مرة أخرى.

طوقونا، قال أحد المطوقين:

- وقعتم في قبضة العدالة.

صرخ أحدهم يجب أن يكون رئيس الدورية.

- أين البغل الذي ذبحتموه، أخرجوه بسرعة.

تأتأ السائق:

- بغل ماذا؟ أي بغل؟

- بغل، حصان، أو حمار... نحن نتبعكم من المسلخ، تبعنا أثر الدم فعرفنا طريقكم. لقد لوثتم شوارع اسطنبول كلها بالدم... يعني تذبحون الحمير والبغال وتطعمونها لسكان اسطنبول على أنها خراف ذات حَدوات، هذا؟

قال السائق:

- لا بغل، ولا حمار ولا حصان... وا لله إنسان.

- ماذا؟ إنسان؟ آه يا وحوش.

شرح حقيقة الوضع لرئيس الدورية... عندها قال:

- ما شاء ا لله، كم من الدماء في جسد الرجل.

ولكي يضرب مثلاً حياً على ارتفاع المستوى الاجتماعي في البلد. قال رئيس الدورية بعد أن حُمل الجريح إلى داخل المشفى:

- لقد جئنا إلى هنا. لنفتش السيارة، لكي نعمل شيئاً، ولا نعود بخفي حنين..

عندما عُرف أن ثمة ميتاً في (الباكاج).

- ما هذا؟

قال السائق:

- كما ترون، ميت، رجل منحوس، كل ما جرى على رؤوسنا بسبب جلب جثته إلى هنا.

أخذوا الجريح إلى مكان آخر وبالتالي افترقت عن رفيق طريقي الطويل.

رموني في مكانٍ من قبو المشفى عندما عرفوا أنني ميت لكي يرسلوني إلى الطبيب الشرعي. حيثُ رحت نائماً على البلاط لشدة تعبي من الهز في السيارة.

آه يا ذبابة الحمار الحبيبة. إذا كان عندك عقل لا تملي الحياة بسرعة. أنا أكتب لك من مصاعب الموت لكي تشعرين بطعم العيش في تلك الحياة الجميلة. صحيح أن الحياة لأمثالي وأمثالك صعبة لكنها جميلة.

سلامي ومحبتي

حمار ميت

الرسالة العاشرة

(الحمار الميت يحكي عن إلقائه في قبو المشفى منتظراً إرساله إلى الطب الشرعي)

عزيزتي ذبابة الحمار:

شك أطباء مشفى الإسعاف -الذين عاينوني- في موتي. سأل الطبيب- المكلف بإعطاء تقرير وفاتي لإرسالي إلى المشرحة - الممرضة عما إذا كنت ميتاً بحق.

قالت الممرضة:

- أنا نقلت كلام الخادمة يا دكتور. الخادمة قالت إنه ميت.

عصَّب الطبيب.

- أنا دقيق في عملي. لا أعطي تقريراً قبل أن أتأكد بشكل قطعي من موت الميت. لا يوثق هذه الأيام في حي أو ميت. يأتون إلى هنا ميتين -على قولهم - نثق بهم فنعطيهم تقريراً "ميت، يدفن" بعدها لا يثبتون على كلمتهم. أما أن يُدغدغون بينما المُغسل يُغسلهم أو يصحون حين إنزالهم إلى القبر، فيتمطمطون ثم يقفزون قائلين "آه، تأخرت عن شغلي".

قالت الممرضة:

- صحيح يا دكتور، أتذكر المرأة العجوز التي أعطيتها تقرير وفاة ثم بُعثت.

- وضعت ثقتي بكلام كَنَتِها. كيف لا أثق وقد جاءت لعندي في العيادة، ما أجمل كلامها، ساعة كاملة تحكي لي كيف ماتت حماتها. لا يمكن إلا أن تثق، كانت امرأة جميلة جداً، لا يخطر ببال أحد أبداً أنها تكذب. كل الحق

على الحياة كيفما كان، الجميع علم بموتك، انتهت كل معاملات إثبات الوفاة. الجيران والأقرباء أتوا للعزاء. بكى الباكون، حزن الحزانى. أهم من ذلك أنني أعطيت تقرير وفاتها. أتممنا كل الأمور الروتينية. لم يبق أكثر من دقيقتين وتصبح تحت التراب... أو يَخرب الإنسان لعبة وصلت إلى هذا الحد. ما الذي ستستفيدينه من عدم موتك. ستموتين عاجلاً أم آجلاً.

- أنتم طلعتم بالخجلة... لو كنت مكانك، لقلت أن هذه المرأة ميتة، أو في عداد الأموات. وقبَّرتهم إياها بالقوة. أيصدّقون الطبيب أم امرأة عجوز وجاهلة. كل الإشكالات تأتي من الجهل. شعبنا مع الأسف في منتهى الجهل. جاهل إلى حد أنه يموت ولا يعرف أنه مات. هناك أناس بالرغم من أنهم موتى من زمن ولكن حتى الآن يذهبون هنا وهناك ويدَّعون أنهم أحياء. من الممكن أن يكون الإنسان لا يعرف في كل شيء، ولكن يجب أن يسأل صاحب المعرفة عما لا يعرفه. عندما يعطي الطبيب لإنسان تقرير وفاة يجب أن يفهم أنه توفي. لا يعيب الإنسان عدم معرفته بل يعيبه عدم تعلمه.

- جهل.

- أنا سألت المرأة التي بُعثت. وهل ذهب كل هذا النحيب والبكاء، الحزن والعزاء، هباء. ثم من الذي سيصدقِك ويبكي عليك من جديد إذا توفيت مرة أخرى...

سيقولون... لا تبكي على الفاضي لعلها - وقد تعلمت - تحيا من جديد.

- عندما بُعثت؟

- ما أهمية هذا... في تاريخ الطب العالمي كثير من حوادث الإحياء هذه. عللت طبياً إحياء تلك المرأة..

كانا يتكلمان بقربي. سأل الطبيب الممرضة مرة أخرى:

- والآن، هل الرجل ميت بحق؟

- على قول الخادمة.

- نادي تلك الخادمة. لنرَ.

نادت الممرضة الخادمة. وجّه الطبيب سؤاله لها مشيراً إليّ:

- قلت أن هذا الرجل ميت. أليس كذلك؟

- لم أكن الليلة الماضية مناوبة يا دكتور. كل ما أعرفه أن البواب قال "هذا الرجل ميت خذوه إلى المغسل."

ما فهمته، لكي لا يقع الطبيب في أي خطأ ولا يُظلم أحداً. يريد إثبات موتي بشهادة الشهود. وصلت إلى هذه النتيجة من خلال كلام الممرضة.

- أنا إنسان عاشق لمهنتي. لو كان مكاني طبيب آخر لجس نبضه، واستمع لدقات قلبه... أنا لا أكتفي بهذا ولكي لا أقع في أية ورطة مستقبلاً أشهِّد ثلاثة شهود على وفاته... مرت على رأسي حوادث كثيرة... كنت طبيباً مناوباً، شربت في يوم كنت فيه مناوباً... لكثرة ما شربت لم أذكر كيف جاؤوا بي إلى المشفى. إيه، شباب... المشكلة أن ثلاثة من المرضى وَجَدوا في تلك الليلة الزمن المناسب ليموتوا. قالوا "يا دكتور مات ثلاثة مرضى." "رحمهم الله" ماذا يمكنني أن أقول غير ذلك؟ علينا أن نذكر الأموات بالخير. قالت الممرضة المناوبة "أليس من الواجب معاينتهم لتقرير حالتهم." "هذا!... معاينة" ولكن لكثرة ما شربت لم يعد فيَّ قوة للوقوف. المهم، سندني الخدم من ذراعيّ، وأوقفوني أمسكت يد الميت حسست نبضه. آآآ.. الله الله.. نبض الميت يضرب بسرعة قلت " أحضروا الميت الآخر." نبضة مثل السابق. الثالث كذلك. نبض الثلاثة ٩٠. "الثلاثة غير ميتين وحالتهم.. اذهبوا، ادهنوا ظهر كل منهم بحبة أسبرين كل ساعة، بلّعوهم يود."

وهل أعرف ما قلت في نشوة سكري؟.

قالت الممرضة "أليس من الأفضل أن ندهن لهم باليود ونبلعهم أسبرين؟.." قلت "ممكن" قالت "الآن" "لماذا" "لأن الأسبرين يسرع القلب.."

قلت "بدلي الأسبرين بكينين[10]" ألا تقول "للكينين نفس المفعول يا سيدي." عندها غَضِبتُ، صرخت "كل هذه السنين ممرضة ولا تعرفين دواء يخفف سرعة القلب، أعطيهم ما تريدين" قالت "عندما أمرض تسقيني أمي زهورات. أتريد أن أعطيهم زهورات" قلت "هق... أعطيهم... لأكتب لك... هق... وصفة زهورات... هق..." قالت " لا تفيد، لا يوجد صيدلي في المشفى. أذهب إلى الدكان وأشتري عن زكاتي قليلاً من الزهورات." ذهبت ونمت ثم أحسست أن أحداً يوقظني كأنني في حلم، سمعت "لا يأكلون" "من الذي لا يأكل" " الموتى لا يأكلون الزهورات" ذهبت، ألقيت نظرة وإذا بالخادمة تحشر الزهورات في أفواههم كأنها تعلف دابة. قلت "ألم تغلي الزهورات؟ ماء الزهورات سيشربون الممرضة لم تقل لي أغليه" " ألا تعرفين كيف تعطى الزهورات" " أنا لا أفهم بشغل البيت." " أين الممرضة؟ " " ليست في غرفتها " نمت من جديد ولا أدري كم مرَّ من الزمن وإذ بصوت " يا دكتور الموتى لا يشربون الزهورات!.." أنا في حالة سكر من جهة ونعاس من جهة أخرى. " اضربوهم إبرة ." قالت "إبرة ماذا؟" " أي إبرة مما هو موجود في المشفى " قالت " لا يوجد في المشفى غير إبرة شكّالة[11]" قلت " ثبتي فيها شَقال قميصك الداخلي حتى لا يُسحل " في تلك الأثناء أتى موظف القيود في المشفى وقال " ما المرض الذي سَبَبَ موتهم لأسجله بالدفتر؟ " قلت " ليسوا أموات بل أحياء " قال غير ممكن يا دكتور،... لأنهم عَملوا عمليات "نبضهم ينبض". أمسكت يد أحد المرضى لأعاينه فقهقه الكاتب "بدلاً من أن تجس نبضهم، تجس نبضك

---

[10] كينين: مادة تستخرج من شجر الكينا. (م)

[11] المقصود دبوس شكّال. يستعمل في التركية نفس المفرد للدبوس والإبرة. (م)

أنت!!".. تفوه.. من سكري كنت أحس يـدي اليسـرى بـاليمنى. ومـن يومهـا كلما أردت أن أعطي تقرير وفاة... أبحث عن شاهد - شاهدين.

أتى البواب الذي أرسل خلفه الطبيب. سأله مشيراً إليّ:

- هل الميت، ميت بحق؟؟

- ميت يا سيدي، ميت بحق؟؟

- كيف عرفت؟

- وهل معرفة ذلك أمر صعب. أنا بواب مشفى من ثلاثين سنة. كم من الموتى مر عليّ... أصبحت خبيراً في الموتى... حتى أنني بنظرة أعرف عمل الميت، مقدار دخله، عدد الأشخاص الذين يعيلهم...

- مادام هكذا، قل، كم كان دخله؟

- لا أكثر من أربعمئة ليرة.

- كيف عرفت؟

- انظر يا سيدي. خصره بثخانة رقبته، يكاد أن يقطع.

- ماذا كان يعمل؟

- لا أعرف بالضبط عمله متعب... فوق ذلك يعيل أسرة كبيرة. خـدوده تكاد تلمس بعضها من الداخل... عيناه غائرتان... يعيل تقريبـاً ثمانيـة إلى عشـرة أشخاص.

- كيف عرفت؟

- انظر إلى كتفيه. ساحلان إلى أسفل يوحيان لنا كم من الأحمال الثقيلـة حمل.

- مات... لو لم يكن شريفاً لما مات؟ كان ممكناً أن يعيش مثل الآخرين.

- صحيح.

- إنه رجل ذكي..

- ماشي، بالنسبة لكل ما قلت، ولكن كيف عرفت أنه ذكي يا هوه..؟
- لو دققتم النظر يا دكتور، ترى بالرغم من كونه ميتاً يضحك بسخرية..
- بالمختصر، أنت شاهد على أنه ميت...
- نعم.
- وهل تعرف، لماذا مات؟
- كاتب المشفى يسجل اسم الذين لا يعرف أسباب موتهم "فيزيولوجية السفالة" من الواضح أن هذا مات لنفس السبب.
- صحيح. ولكني لا أزال أشك في أن هذا الرجل ميت... أنا لا أتحمل مسؤليته. سأحوله وأخلص منه... ليحددوا في الطب الشرعي كيفية موته.. والشرطة من قَتَله.

ذبابة الحمار، خفت كثيراً. إلى أين سيحولني هذا الطبيب يا ترى؟ أتريدين أن أنتقل من مكان إلى مكان مثل معاملة في دائرة رسمية لم تدفع رشوتها.

قال الطبيب:

- سأحوله إلى الطب الشرعي، من أجل سلامة العمل.

خفت أن يرميني خارج باب المشفى قائلاً "عليه أن يعيش غصباً عنه، لا يعد من الأموات وضعوني مع أموات آخرين في قبو المشفى ريثما يرسلوني إلى الطب الشرعي. كان المكان بارداً جداً، لكي لا تفوح رائحتنا. ولكننا لا نهتم لا بحرارة ولا ببرودة.

ذبابة الحمار الحبيبة، سأحكي لك عما جرى لي في الطب الشرعي

حمار ميت

الرسالة الحادية عشرة

(كيف نجح أحد أفراد الطبقة الراقية في قتل نفسه)

ذبابة الحمار الحبيبة:

من وجهة الموت فقد مت. ولكني لم أمت "رسمياً". أثناء كتابتي لهذا السطر، أكاد أسمعك تقولين "ما أصعب العيش (رسمياً) والموت (رسمياً) أيضاً".

كان هناك بعض الأموات في قبو المشفى البارد إلى ما تحت الصفر. يوجد على يساري ميت متوسط العمر. وعن يميني امرأة عجوز ميتة سألت الرجل الميت:

- لماذا مُتُّم يا سيدي؟

خاطبته بالجمع واتبعتها بسيد، لأنه حتى بعد موته، لا يزال منفوشاً بشكل مضحك، وبينما كنت أنتظر جوابه وإذ به يقطب وجهه ويديره إلى الجهة الأخرى. وقال، وكأنه يحادث نفسه "لهذا لم أكن أحب الموت. يموت الناس فلا يبقى بينهم فرق طبقي. هنا يلتقي الجميع بين سيد وخادم. من عُرف جده ومن لم يُعرف. أي نوع من البشر هؤلاء. رجل لم تتعرف عليه بعد، يسألك عن سبب موتك، الموت غير مهم ولكن الاجتماع بأناس لا يعرفون الأصول، هو الشيء الذي لا يطاق.."

همست المرأة التي على يساري:

- السيد من الطبقة الراقية.؟

خجلت لسؤالي المباشر الذي خرج كما لو أن شيئاً سقط من السطح قبل أن أُعرِّف بنفسي. بعدها بقليل، عرَّفت بنفسي. لم أفهم عمله بشكل واضح. ما فهمته أنه يعمل كل شيء دون أن يعمل شيئاً. ثم حكى عن موته:

- انتحرت.

- هل من السهولة أن يقتل الإنسان نفسه؟

غضب الرجل الراقي مرة أخرى لأن شاباً دخل في الحديث ظاناً أن السؤال موجهاً له.

- الانتحار أصعب من العيش فكَّرت أن أرمي بنفسي في البحر. فتشت سواحل اسطنبول، طرفيها الأناضولي والرومي ولن أجد قطعة ولو صغيرة، غير مشغولة، لأرمي منها نفسي. سيطر الأغنياء على كل سواحل اسطنبول. (شاليهات)، (فيلات)، (كازينوهات)، حدائق وأرصفة خاصة...

قطب الرجل المنفوش وجهه كما لو أنه يشم رائحة كريهة. وبدأ يخرج صوت "حق، حق، حق" وقال:

- أمثال هذا الشاب هم الذين جعلوا من بلدنا الجميلة لا تطاق... ولكن الشاب الميت لم يهتم لكلامه وتابع:

- وضعوا هنا وهناك لوحات "ممنوع" خاصة مثل "ممنوع الدخول إلى البحر من هنا." "ممنوع المرور من هنا" وكأنها لم تكف حتى يضعوا لوحات "يوجد كلب" ليس كلب بل وحش. إن كنت شاطراً، مر وأرمِ نفسك في البحر... أن ترمي نفسك في البحر شيء، وأن تجعل كلب يمزقك شيء آخر. وجدت (شاليه) من دون كلب ودون لوحة منع. قلت لصاحبها "هل تأذنوا لي باسم الإنسانية أن أرمي بنفسي في البحر من هنا.." بدأ الرجل ينصحني "هل يترك الإنسان هذه الحياة الجميلة وينتحر!" عندما قال "الجميلة" كان يشير إلى

أزهار حديقته وأشجارها، بركة الماء، (الشاليه) المكسوة بالمرمر... لم أجد في الساحل مكاناً أنتحر فيه...

قلت:

– لو كنتم ذهبتم إلى أحد (البلاجات).

– من الواضح أنكم لم تذهبوا إلى (بلاج) منذ فترة طويلة... فكرت بالذهاب إلى أحد (البلاجات) لعلي أجد مكاناً عميقاً أرمي نفسي فيه، ولكن أين... لا يمكن أن ترى البحر لكثرة الازدحام. رميت بنفسي من رصيف على البلاج وإذ بصوت يأتي من الأسفل "هيش" وإذ بي أنزل نكساً في بطن رجل. قلت، لأركب السفينة وأرمي بنفسي منها في البحر. وهذا لم يتحقق أيضاً... لو صادفك الحظ وركبت السفينة فإنك لا تستطيع الحراك وسط الناس لكي تصل إلى طرفها، وإذا وصلت لا تستطيع أن ترمي نفسك في البحر. لو فعلت، لعلقت يداك، رجلك. وإذا لم تعلق أمسكوك وأنت في الخلاء، وإذا وصلت إلى الماء لأخرجوك. بالمختصر المفيد الانتحار غرقاً في اسطنبول أمر غير ممكن. جربت السم. شربت أكثر السموم تأثيراً. لم أمت. شربت كمية أكبر. لم أمت. بل اترك الموت جانباً، كلما شربت السم تزداد قوتي. سألت أحد معارفي الأطباء عما إذا كان ثمة من لا يموت بالسم. قال نعم، هناك بعض سكان اسطنبول، ألفوا السم، المزابل المتروكة، غازات السيارات، الدخان، الغبار، حومات الماء الوسخ، هذه الأشياء كلها سموم ولكن الناس تعودوا عليها، حتى إن أقوى أنواع السموم لا تؤثر فيهم. سكان منطقة الخليج يختنقون لو أخذتهم لمكان نظيف الهواء.

– قال ابن الطبقة الراقية:

---

* خليج القرن الذهبي في اسطنبول. قبل عام ١٩٨٦ كان مكاناً لرمي نفايات منطقتين، صناعية وتجارية.

- هل فهمتم الآن، سبب انتحاري؟

- لم أفهم.

قال:

- أصبحت الحياة في بلادنا لا تطاق.

سألته:

- لماذا؟

- استمعتم للرجل كل هذا الوقت... هل يُعاش مع إنسان كهذا... لم يعد هناك من يعرف حده على كل شخص أن يعرف موقعه الاجتماعي. إذا أتى القدم لمكان الرأس، والرأس لمكان القدم،يغدوا المجتمع رأساً على عقب... هذا هو سبب انتحاري...

- كيف انتحرت؟

- كنت عائداً مع سكرتيرتي ليلاً من مضيق البوسفور...

قلت:

- فهمت.

- أعطيناها غطاء الحادث.

ثم أضاف رجل الطبقة الراقية الذي لم يستطع العيش بين الناس الخشنين الذين لا يعرفون حدهم:

- مت و لم أخلص. الوضع الآن أسوأ من السابق. لا يوجد فرق طبقي بين الأموات وبرم وجهه.

ذبابة الحمار الحبيبة، في الرسالة القادمة أحكي لك عن أسباب موت الآخرين. أقبل عينيك.

حمار ميت

الرسالة الثانية عشرة

(قصة البحث عن قبر جميل فخم يناسب شرف العائلة)

ذبابة الحمار الحبيبة:

لا أدري فيما إذا كانت رسائلي قد ضايقتك. لعلك تقولين لنفسك "لو مات رسمياً وخلصنا منه" آه لو مت رسمياً، وخلصتُ، وخلصتِ أنت أيضاً... ولكن، كما ذكرت لك سابقاً، لا العيش سهل ولا الموت سهل، لعل الموت سهل لكن الميتة رسمياً تطول لا تقولي، وهل تبقى معاملات رسمية بعد الموت... موجودة مُتِ أم لم تموتي. عرفت من أصدقائي الأموات الذين معي في القبو تفاصيل (الموت رسمياً). بينما كان مستخدمان يخرجان ميتاً قالت المرأة المتمددة بجانبي:

- أي حظ لهذا الرجل، هذا هم يأخذونه و لم يمر أربعة أيام على إحضاره إلى هنا. لو تنتهي معاملتنا ونخرج من هنا. لا بد أن مع هذا الرجل (كرت) واسطة!

قلت للمرأة:

- ما الذي تقولينه يا خالة. نحن هنا كلنا أموات وهل للميت حظ، (كرت) واسطة أو معاملة.

قالت:

- طبيعي أنتم هنا جدد، لذا لا تعرفون، أخذوني مثلاً... في اليوم الذي مت فيه، طلبوني للجيش ضَحِكتُ بشدة. قالت المرأة العجوز:

- هُس، لا تزودها، لا يليق بالأموات أن يفعلوا فعل الأحياء.

- ماشي، ولكنك تَبدين في الستين من عُمركِ على الأقل، عدا عن أنك امرأة.

- عمري سبع وستون سنة. يتوجب على أولادي إثبات سني بالأدلة حتى لا يسحبوني إلى الجيش، ثم يجب أن أحصل على قرار المحكمة بكوني امرأة. بعدها يثبت موتي وإلا سيسحبوني إلى الجيش.

- لماذا لا يتحرك أولادك لعمل هذه الأشياء؟

- تحركوا كثيراً. أثبتوا أني امرأة في السابعة والستين من العمر. ولكن ليس من صالحهم أن يُثبتوا موتي.

- لماذا؟

- لأن بطاقة الفحم باسمي، تعرفون ما أصعب إخراج بطاقة فحم جديدة. عندي حق استلام طن من فحم الكوك كل شتاء. يُبطلون البطاقة فيما إذا علموا بموتي. الله أعلم كم شتاء سيرتجف من في البيت لشدة البرد. لا يريدون إثبات وفاتي يستمروا باستلام الفحم. سيسوقونني إلى الجيش إذا لم يثبتوا وفاتي من جهة ولا يحصلون على إرثهم مني، من جهة أخرى. هذه عقدتي المستعصية. أولادي احتاروا، بين أن يتنازلوا عن الميراث وبطاقة الفحم أو يرسلوني إلى الجيش... لم يستطيعوا إعطاء قرار. لهذا أنتظر... انظر، أترى ذاك الشاب، قبل أن يموت بيومين صدر قرار بالقبض عليه. لهذا ينتظر هنا... من أين لهم أن يفهموا أنه متمدد على أنه ميت ليتخلص من السجن؟..

- ألا يفهم الأطباء؟

الله يا بُني الأطباء لا يفهمون في الأحياء من أين لهم أن يفهموا في الأموات... انظر تلك المرأة المتمددة عند حافة الجدار، ماتت وبعثت تسع مرات. تتمدد بطولها على الأرض قائلة "لم يبق لهذه الدنيا طعم أو نكهة، أصبحت لا تطاق..." يوصلونها حتى المدفن، عندها ترجع بقرارها وتنهض.

- لو كنت مكان الأطباء، لأُسرعت في دفنها.

- يووه، ليس عند الأطباء وقت يحكّون فيه رأسهم، يأتون كل صباح يستعرضون المرضى حتى الساعة الحادية عشرة. لذلك، أحضروا المرأة إلى هنا لتنتظر، عندها يفهمون إن كانت قد ماتت نهائياً. ثم يُنهون معاملتها ويدفنونها.

في تلك الأثناء خرج صوت خشن، قال:

- تطول المعاملة...

نظرت وإذا بميت عجوز حسن الهندام يتكلم، فقلت:

- وهل متم أيضاً؟

قال بصوت فيه قوة وصلابة:

- لا لم أمت. توفيت. ألا تقرأون الصحف؟

- أقرأها.

- ألم تقرأ نبأ وفاتي في الصحف؟ كل الصحف كتبت...

قاطعته قائلاً:

- مقالة؟

- لا. صفحتين لإعلان وفاتي، طلب إعلانها كل من عائلتي، شركائي والشركات التي أسستها. لو كان الإنسان أعور لرأى كل هذه الإعلانات.

- لم ألحظها.

- صدقوني، جمال إعلانهم عن وفاتي جعلني في غاية السرور من الوفاة... الإعلان بذاكرتي... سأقرأه غيباً........ "فقدان غال" "فقدان مؤلم" "والدنا، زوجنا، حَمُونا، ابننا، صهرنا، أحد رجال الأعمال في بلدنا، مؤسس شركة "خذ وهات" أحد كبار مساهمي شركة "تعال خذ" أحد أحفاد الصدر الأعظم سليمان صولو باشا حفيد محمود باشا، ابن أخت قاسم باشا أخو صهر بيرم باشا...

كان سيعد قائمة بطوله لكني قلت:

- لقد عرفت حضرتكم يا سيد. لا تكلفوا أنفسكم جهداً، إنكم منهم...

استمر الرجل:

- (إرتحل إلى دار البقاء، للقاء وجه ربه الرحمن الرحيم في استراحته الأبدية...)

صرخت:

- عرفتكم يا سيدي، عرفتكم... ولكن لماذا تنتظرون هنا وهل لأمثالكم معاملة؟

- لم يجدوا لي قبراً. طبيعي لدينا مقبرة العائلة، لكنها قديمة، والفقراء يدفنون أمواتهم فيها. سينشئون لي قبراً في المقبرة الجديدة، ولكن لم يبق مكان قبر في الدرجة الممتازة. تعلمون على أية حال أن أمكنة القبور اليوم في السوق السوداء. هناك خارج السوق السوداء بعض القبور ولكن أمكنتها غير جيدة. لن تعجب عائلتي. يبحثون عن مكان قبر جميل المنظر.

- ما أهمية جمال مكان القبر بعد موت الإنسان.

- ليس من أجلي بل من أجل من سيزورونني، يريد أقربائي عند مجيئهم - حاملي الورد _ لزيارتي أن يقفوا ليبكوا ويعبروا عن تأثرهم في مكان جميل. على الأرجح سيبكون أنفسهم أكثر مني قائلين: "ذهبت وتركت هذه الدنيا الجميلة" لذا يجب أن يكون منظر قبري أمامهم جميلاً... إذا كان منظر القبر قبيحاً فعلى ماذا سيبكون، ليس هذا هو السبب الوحيد بالطبع. هناك شرف العائلة، يريدون قبراً يناسب شرف عائلتنا... عندما يصل الموضوع إلى الشرف يجب أن يشتروا مكان قبر من السوق السوداء. توفي أحد مؤسسي الشركات المنافسة لنا قبل ثلاثة أشهر. وجدوا له في السوق السوداء مكان قبر جميل جداً. لو اشتروا لي قبراً أرخص من قبره سيتمرغ شرفنا بالتراب من جهة وينخفض

اعتبار شركتنا من جهة ثانية. أفهمتم؟ لهذا السبب يبحث شركائي عن مكان غالٍ جداً.

- هل وجدوا؟

- أمن الممكن ألا يجدوا؟ اشترت شركتنا كافة أمكنة القبور في السوق السوداء هذا يعني أنني؟ أنا اشتريتها. الأمكنة عندنا. إذا أسرعوا بدفني سينزل سعر أمكنة القبور في السوق السوداء. يمطونها قليلاً للدعاية، وبالتالي ترتفع أسعارها... فهمتم؟

- فهمت يا سيدي...

أختي الحبيبة ذبابة الحمار كم من الأشياء هنا يكتب عنها ليس لدنيا الأحياء مكان جانب دنيا الأموات. يخطر ببالي أحياناً أن أعود عن الموت. لو كنت أعرف أن الموت صعب كل هذه الصعوبة لما علّقت نفسي. سأتنفس الصعداء لو انتهت معاملتي ومت رسمياً.

أختي ذبابة الحمار إذا أردت أن تموتي فاختاري الوقت المناسب. إذا استمرينا على ما نحن عليه، ستصبح فيه كل القبور في السوق السوداء. ماذا ستفعلين حينها؟ لا تستطيعين أن تموتي.

أقبل عينيك بشوق.

سلام ومحبة

حمار ميت

الرسالة الثالثة عشرة

(حكاية الأموات "الضاحك، الباكي، المفكر")

عزيزتي ذبابة الحمار:

لا يخلص الإنسان من أيدي الأحياء حتى ولو مات. يخطر لي أحياناً أن أصرخ "كفى، خلصوني وادفنوني" ولكني لا أفعل لأنني أعرف أن لا أحد يسمع صوت الميت.

هناك الكثير مثلي من منتظري دورهم للذهاب إلى المشرحة من أجل معرفة هويتهم، لتحديد أسباب موتهم، فيما إذا كان مشكوك فيه. من بين هؤلاء الأموات ثلاثة مدهشون. واحد يضحك دون توقف والثاني يبكي أشد البكاء والثالث أخذ وضعية المفكر دون حراك.

ذهبت إلى جانب الذي يضحك منذ أتوا بي إلى هنا:

- أعذروني يا سيدي أحببت أن أعرف لماذا تضحكون كل هذه الضحك.

أختي ذبابة الحمار. ضِحكُ الميت شيء غريب جداً. افرضي أمامك رجل ويتشقلب لشدة الضحك.

لشدة ضحكه، لم يستطع الميت إجابتي كأنه (ماكينه) قهقهة شغالة. يضحك ماسكاً جالبيه دامعةً عيناه. ثم أخرج صوته قائلاً:

- أيّ سأدوخ... دخيل الله، أف...

من خلال ضحِكه حكى لي قصته بشكل متقطع:

- شيء لا يمكن ألا يضحك... ذهبت مع زوجتي ليلة الصباح الذي مت فيه إلى المسرح. زوجتي تلح عليّ منذ زمن قائلة: "لنذهب إلى المسرح، ونحضر مسرحية كوميدية تفتح نفسنا." اشتريت بطاقتي مسرح لعرض كوميدي، ذهبت وزوجتي إلى المسرح بدأنا بالضحك فور فتح الستارة. كانت كوميدية مضحكة. ضحكنا ضحكاً لا يمكن وصفه... كدنا نختنق من الضحك. الغريب، أنه لا يوجد ثمة من يضحك في الصالة سوانا. اترك الضحك جانباً، الجميع كانوا يبكون. قال أحد المتفرجين في منتصف الفصل الثالث: "يا سيدي كفى، أرجوكما كفى ضحكاً." تحركت زوجتي قبلي. قالت: لِمَ لا تضحك، دفعنا نقوداً، ألسنا نضحك بنقودنا؟... أخرجونا من الصالة في منتصف العرض. صاح بنا المتضايقون من ضحكنا. لماذا تضحكون؟ "لِمَ لا نضحك، أتينا نحضر عرضاً كوميدياً سنضحك بالتأكيد"... قالوا: "أية، كوميديا، هنا لا تعرض كوميديا بل تراجيديا." نحن نصر على أن العرض كوميدي وهم على أنه تراجيدي. صاحوا بنا "أغبياء!" "أنتم الأغبياء. تبكون في عرض كوميدي". نظرنا في إعلان المسرحية لنعرف فيما إذا كان العرض كوميدياً أم تراجيدياً. كُتب في الإعلان تراجيدياً. عندها فهمنا الخطأ بدلاً من شرائي بطاقات عرض كوميدي، اشتريت خطأً بطاقات عرض تراجيدي. كنت وزوجتي نضحك ظناً منا أننا في عرض كوميدي. هناك ناقد مسرحي قال: "أنتما على حق، أتيتما إلى المسرح، دفعتما نقوداً لتحضرا عرضاً كوميدياً. كنتما تضحكان لنيل مقابل ما دفعتماه. أو بالأحرى لتخففا ألمكما على ما دفعتماه، أعطيتما قراركما وهيأتما نفسيكما للضحك. المتفرجون الباكون أيضاً على حق. دفعوا نقودهم لكي يبكوا لذا بكوا لنيل حقهم مقابل ما دفعوه من نقود، هم أيضاً أعطوا قرارهم وهيأوا أنفسهم للبكاء منذ اشتروا بطاقاتهم. لا أنتم ضحكتم ولا هم بكوا بتأثير العرض الذي شاهدتموه. لو لم يكن ثمة عرض، لو تحركت الستارة بفعل الريح، دون فتحها

ستضحكان قائلين "كم مضحك." هم سيبكون قائلين "كم مؤلم" كيف يضحك الناس في عروض مسرحية تُبكي، يسمونها كُتّابها كوميديا؟.. ماذا سيفعل الجمهور المسكين، أخذوا نقوده منذ البداية قائلين له "سنضحكك" لو كان الجمهور لا يدفع نقوداً وهو داخل إلى المسرح بل وهو خارج منه، سنرى أدعياء كتابة الكوميديا فيما إذا كانوا سيُضحكون متفرجاً واحداً" أفهمت لماذا أضحك؟... هذا هذا هخا... آي... سأدوخ،... يالغباء البشر. سأطق من الضحك.. هاهاها... هاهاها... هاهاها..

ذهبت للميت الباكي أشد البكاء وقلت:

- أظن أنني فهمت لماذا تبكون. من المحتمل أنكم ذهبتم إلى المسرح وحضرتم كوميديا على أنها تراجيديا.

مسح الميت دموعه وأنفه وقال ساحباً الكلمات واحدة، واحدة:

- لا، إذا لم أبكِ فمن سيبكي؟.. قبل أن أموت كنت من قراء جريدة "الطريق الصحيح" كتب أحد كتاب المقالة، زاوية بعنوان "فقدان غال" يومها مات شخص مهم ذو قدر. كتب الكاتب عن ذاك الفقيد. لم أقرأ في حياتي مقالة بهذه المرارة حتى أنني لم أستطع إنهاء المقالة، كلما قرأت كلمة تسيل دموعي أكثر. كتب "خالدٌ في نفوس البشر!... خدماته للإنسانية..." ذهبت إلى مبنى الجريدة بعد قراءة المقالة. قابلت الكاتب. قلت "لو أعرف أنه سيكتب عني بعد موتي مقالة بهذا الجمال لمت الآن..." قال الكاتب "لا تشغلوا بالكم، جمال الكتابة حسب نقودها"، دفعت حسب طلبه.

كانت عينا الميت متورمتين وتدمعان دماً لشدة البكاء. قلت:

- أرحم نفسك لا تبكِ.

- كيف لا أبكي، هذا أنا متُّ.. لكنه لم يكتب من بعدي ولا حتى سطرين. يموت الإنسان أحياناً على الفاضي.

سألته:

- من هو الشخص الذي كُتبت عنه تلك المقالة؟

قال الميت وهو يمسح دموعه:

- لا أعرف... رثاؤه كان مؤلماً. يومها حاولت أن أعرف، سألت هنا، وهناك "من ذاك الرجل" لم أجد من يعرفه.

- لم تبكون الآن؟ لقد متم.

- كيف لا أبكي... لا أستطيع أن أنسى تلك المقالة المنشورة في جريدة "الطريق الصحيح". كلما تذكرت المقالة لا أتمكن من مسكِ نفسي عن البكاء... سأبكي دائماً...

ذهبت إلى جانب الرجل الذي أخذ وضعية المفكر. قلت:

- عفوكم، منذ قدومكم وأنتم تفكرون، أثرتم فضولي، بماذا تفكرون يا ترى؟

قال:

- أفكر في كوني إنساناً أم لا.

قلت:

- كيف! أنتم إنسان بالطبع.

- ظننت نفسي كذلك، ولكن لم أستطع إثبات كوني إنساناً لأحد.

لأحكي لكم:

لو صرخنا، أو وَلْونا هل يسمعنا الأحياء من البشر؟ لا يسمعون... لأننا أموات، نتكلم لغة الأموات، ونصرخ صراخ الأموات. يحدث ما يشبه ذلك في عالم الأحياء. هناك الكثير من البشر يصيحون ويولولون ولا أحد يسمعهم لأنهم غير معروفين إن كانوا أحياء أم أموات، لا يفرقونهم عنا، لا يُحسبون على معشر البشر في تلك الدنيا المظلمة إلا في الإحصاء، الانتخابات، دفع الضرائب،

خدمة الجيش. كم شخصاً يجيب على سؤال "هـل أنـت إنسـان؟" وهـو مرفـوع الرأس نافخ الصدر. لكل شيء شروطه. شـروطه الإنسـانية، أن يعيـش الإنسـان مثل الإنسان. أينما ذهبـت كـانوا يحقرونـي قـائلين "أأنـت إنسـان؟" لم أسـتطع الإجابة على هذا السؤال طوال حياتي. أمضيت باذلاً جهدي لكي أعيـش حتـى إنني لم أجد فرصة في التفكير كوني إنساناً أم لا. الحمد لله إنـي مـت ووجـدت الفرصة للتفكير. الآن أفكر: "عندما كنت في الحياة هل كنت إنساناً أم لا؟"

قلت:

- بعد كل هذا التفكير هل وجدتم إجابة لسؤالكم؟

قال:

- لا، أفكـر وأفكـر ولا أسـتطيع الوصـول إلى نتيجـة. لـو كنـت إنسـاناً لعشت مثل الإنسان، فأُسمع صوتي للآخرين. ولو لم أكن إنساناً لما طُلب مني أن أُعطي صوتي الانتخابي أو أن أعمل أو أدفع ضريبة.

بعد أن استمعت للميت المفكر، أخذني التفكير أيضاً. نحن أيضاً من فريق الذين لا يستطيعون إسماع صوتهم، أغانينا نغنيها دون صوت، في داخلنا...

هكذا يا أختي الحبيبة ذبابة الحمار. ستغوصين بالتفكير بعد استلامك هذه الرسالة لعلك تضحكين في عرض مسرحي تراجيدي لأنك اشتريت البطاقة علـى أن العرض كوميدي، أو تبكـين عندمـا تتذكريـن المراثـي المكتوبـة لأشـخاص لا تعرفينهم.

قـولي للذيـن كـانوا يقولـون لي في حيـاتي "لتلسـعك ذبابـة الحمـار مـن لسانك" أن يُحنّوا أيديهم.

مع تمنياتي بالصحة والعافية

حمار ميت

الرسالة الرابعة عشرة

(حكاية تبديل الميت الشاب بالميتة العجوز)

صديقة الروح ذبابة الحمار:

تعرفين إذا ما عَلِقَت معاملة ما على طاولة في دائرة، كم من الأيام والشهور تبقى معلقة، هكذا عَلِقنا في قبو المشفى. فُتِح الباب في صباح أحد الأيام. تصايح الموتى..

- سنذهب إلى المشرحة، إلى المشرحة.

كتبت لك أن الأحياء لا يسمعون صوت الأموات. مثل الذين يعيشون في الدنيا لا يسمعون صوت من يظنون أنهم يعيشون.

دخل مستخدمان مع قروي في متوسط العمر. القروي يصرخ:

- أين ولدي؟

قال أحد المستخدَمين:

- لن نأكل ولدك، ياه لماذا تصرخ؟ إذا لم يكن في أحد أجنحة المشفى فهو هنا بالتأكيد.

كان القروي يقول:

- راح ولدي عينك، عينك.. أدخلته المشفى ويقولون أنه غير موجود. لا بد أنك أدخلته مكان آخر..جننّوني.

قال المستخدم:

- وهل في استانبول وضخامتها مشفى واحدة؟ كيف تثبت أنك أدخلته إلى هنا. هنا مكان مثل (البنك) لا يمكن أن تضيع أمانة، ما عدا (شراشف) وبيوت لحق أسرة الدولة.

قال المستخدم الثاني:

- إذا كنت أدخلته إلى هنا، فهو هنا. لم نأكل ولدك، ياه. الأبواب مغلقة لا يستطيع الطير الخروج.

قال القروي:

- أنا أدخلت ولدي إلى هنا، معي رقمه، هذا هو.

أخذ المستخدم الورقة المسجل فيها الرقم وبدأ البحث بين الموتى.

وقف عند رأس أحدهم وقال:

- هذا هو ولدك... (ما قلت) لك أن لا شيء يضيع هنا. لو وضعت الذهب لا يأخذه أحد. مشفى مثل البنك.. البحث عن رجل في المشفى، مثل البحث عن رقم ورقة اليانصيب في قائمة الإصدار. ستبحث في الأرقام المنتهية اولاً. بعدها في الأرقام الكاملة. إذا دخلت على مشفى فابحث بين الأموات بعدها بين الأحياء في الأجنحة... هذه من أساسيات قواعد المشافي.

كانا يُريانه المرأة العجوز على أنها ولده، نظر الرجل ثم قال:

- هذا ليس ولدي.

غضب المستخدم:

- ماذا تعني؟ أنكذب. الرقم نفسه.

قال القروي:

- ا الله، ا الله.. ياهوه.. هذا لا يشبه ولدنا بالمرة.

- كم بقي ولدك في المشفى؟

- يوم الجمعة يكمل الأسبوعين.

هز المستخدم رأسه:

- لا حول.. يا أخي هذا مشفى، ينام الرجل في المشفى أسبوعين وتريد بعدها أن يُعرف لو أدخلته مشفى خاصة يسمن فلا تعرفه. لو أدخلته مشفى عامةً يضعف، فلا تعرفه ما هذا؟ مشفى.

لم يقتنع القروي بأي شكل:

- يا أخي، خربطنا بهذا الولد يوم ولادته في مشفى التوليد. صار هناك خربطة، بدّلوا لنا الولد لا تتبدل جثته هنا مرة أخرى.

- يا أخي الرقم نفسه، هذا هو.

انحنى القروي على المرأة العجوز وصرخ:

- يا لطيف!... يا هو .. هذا ليس ولدنا، هذه حرمة، حرمة ختيارة.

فكر المستخدم قليلاً:

- يا هوه، ظهرت عملية جديدة، يجعلون الرجل إمرأة والمرأة رجلاً. يغيرون جنس الواحد، واضح أن ابنك غير جنسه.

القروي لم يقتنع.

- جميل يا أخي، كله ماشي. ولكن ابننا كان في العشرين. هذه حرمة مهترئة.

- الله.. الله، عاش يا أخي. وهل الأطباء سيقتلون ابنك شاباً. أعطوا ولدك اسبيرين، كينين فأحيوه، بعدها ختيروه ثم قتلوه. خذه يا أخي، خذه من هنا.

حضن القروي المرأة العجوز على أنها ولده وبدأ النحيب.

- دخيلك يا بني، آه يا بني.. ما عرفتك. واخ يا بني.

وضع المستخدمان المرأة على نقالة وأخرجاها.

قال أحد الأموات:

- يا هوه.. كم هذه المرأة محظوظة. خلصت وذهبت. ماذا يحدث لو طلع لي قروي وجعلني أمه أو حماته وأخذني من هنا.

سألت الميت المتكلم:

- أتعرف ماذا حدث لابن القروي؟

قال:

- أول البارحة أخذوه إلى المشرحة ولم يردوه. استغرب الأطباء موته. رأيي أن لا يستغربوا موته بل حياته، كيف يعيشون. أليس كذلك؟

أختي الحبيبة ذبابة الحمار. أتوق لمعرفة ما يحدث عندكم، وما يقال عني. هل يقال "فقيد لا يُملأ مكانه" أم "نقص أحد الميكروبات؟" ليقولوا ما يقولوه. مت ياه. ليَطُق غيرة من بقي بعدي. أنا في المقدمة. تذكرت، كان لنا صديق شاعر، نسيت اسمه ألا يزال هذا الغبي يظن نفسه يعيش. مع السلامة يا أختي ذبابة الحمار.

أخوك

حمار ميت

الرسالة الخامسة عشرة

حكاية الحياة المسلية في المشرحة

عزيزتي ذبابة الحمار:

أخذوني - نهايتها - إلى المشرحة. تصوري، براد كبير بحجم (صـالون)، المشرحة شيء كهذا. يُدخل إلى الصالة، المشرحة هذه. مـن بـاب.. هنـاك بـاب آخر يؤدي إلى المكان الذي يقطَّع ويفرَّم فيه الأمـوات. في المشـرحة يحدد سبب موت الميت. هناك باب آخـر يـؤدي إلى خـزان كبـير. خـزان مـاذا؟ خـزان مـاء معالج، يغطس فيه الأموات المقطعين على شكل أذرع ورؤوس.

ستفهمين فيما بعد سبب شرحي المفصل لمخطط المشرحة.

بعـد أن مددونـي بـين الأمـوات الآخريـن بقليـل، دخـل خمسـة - سـتة أشخاص. من حديثهم فهمت أنهـم أطبـاء. وعـاملوا الطـب الشـرعي. في قعـر الخزان تشققات تُسرب الماء المعالج. كانوا يتكلمون في موضوع كيفيـة صيانتـه. يبدو أنه أتى من يحاول تصليحه عدة مرات، وعندما يرون الأموات متمدديـن في المكان الذي أنا فيه. يهربون تاركين أدواتهم.

ما كـانوا يتكلمونـه: "كيـف يمكـن صيانـة الخـزان دون رؤيـة المصلحـين للأمـوات؟ لمكـان الخـزان بابـان. سـيغلق البـاب المـؤدي إلى الصالـة الـتي تحـوي الأموات. بالتالي لا يرى المصلح وصبيته الأموات. يستعملون الباب الآخر لمكـان الخزان.

خرجوا بعد اتخاذهم هذا القرار. بقيت في البراد ذاك ثلاثة أيـام. لا أذكـر أنني ضحكت وتسليت كما في تلك الأيام الثلاثة.

كان يأتي إلى الطب الشرعي بعض من يبحث عن أحد أفراد عائلته أو قريبه، ممن هم في عداد المفقودين، أو القتلى، فيفتح له باب المشرحة يفرجونهم الموتى.

يُعرض أحياناً، الموتى المجهولو الهوية من أجل تحديد هويتهم. لهذا كان باب صالتنا كثيراً ما يفتح، ويأتينا زوار.

مثل عملية التفتيش. ينحون علينا، ينظرون في وجوهنا ليعرفوا فيما إذا كان الشخص الذي يبحثون عنه. ثلاث مرات، كادوا يأخذوني. إذا وجدوا الميت الذي يبحثون عنه، يأخذونه لعمل مراسم الجنازة.

كان سيأخذني رجل على أنني زوجته التي تركت له ثلاثة أطفال وهربت، ولكن بما أن جنسي مدرج في قائمة موتى الطب الشرعي ذكر، لم يعطوه إياي. عرضوني على امرأة تبحث عن بنت هاربة لها، في الثالثة عشر من عمرها. وأخرى هاربة بعد أن قتلت أمها بالسكين. لم أعجبهما فلم تختاراني.

دخل شاب مع أحد موظفي الطب الشرعي إلى الصالون الذي نحن فيه. فهمت من كلامهما أنها ساعة الانصراف. وأبواب الطب الشرعي على وشك الإغلاق. ولأنه جاء من مكان بعيد جداً ليتعرف على جسد ابن أخيه الميت، توسل إلى رئيس الأطباء فأذن له بالدخول. دخل الموظف وأشعل النور وذهب بعد أن قال للشاب: "ابحث عن ابن أخيك.".

طالت فترة استعراضه وجوه الأموات. لم يجد ابن أخيه مشى يائساً إلى الباب. لم يستطع فتح الباب. لأن حارس الطب الشرعي، قفل الباب الحديدي الضخم ناسياً الشاب في الداخل. لَكَمَ الشاب الباب الحديدي، لكمه، لكمه، دون جدوى. إنه رجل جريء، لكنه خاف إلى حد لن تري مثله، كأننا نحن الأموات أغلقنا الباب عليه فكان يبكي دون أن يقترب منا أو حتى يلتفت لجهتنا. سكت فجأة. لم يعد يصدر (تك) لا منه ولا من الأموات... الباب لا

يفتح إلا في حال جلب ميت جديد. يجن الرجل لحينها. وسيموت من البرد إذا لم يجن... درجة الحرارة في الداخل خمس عشرة تحت الصفر. الرجل شجاع، ليس شجاعاً بكل معنى الكلمة لكنه ذكي... كان يرتجف ويتعالى صوت صدى أصطكاك أسنانه ببعضها في ذاك السكون. المهم أنه يملك بعض المعلومات الفنية أخرج علبة السجائر وأخرج منها ورقة التغليف الداخلية وأدخلها في مكان ما من محرك جهاز التبريد فأحدث تماساً فوق المحرك وبالتالي توقف البرد. لكي لا يموت، أمضى الوقت حتى الصباح يركض بين الموتى. الفرحة الحقيقية كانت عند الصباح عندما فتح الحارس الذي قفل الباب ناسياً الرجل في الداخل. فوجد رجلاً حياً أمامه وبدأ يركض وهو يصرخ، ظاناً أن أحد الأموات قد بُعث.

ركض الشاب وهو يصرخ للحارس لكي يقفل الباب بعد خروجه.

- قف... يا هوه.. قف.. أنا لست ميتاً.

لكي لا يقفل الحارس مرة أخرى كان يقف الشاب مقابل الحارس من جهة الباب وجرت مطاردة بين الأموات... أية فرحة... آه لو كنت حياً. لأضحك من كل قلبي. المهم دخل موظفون آخرون، وفهموا الوضع، لكن لسان الحارس ارتبط وبدأ يتأتئ.

لا تنتهي تسليتنا في المشرحة أبداً. في ذاك الصباح أتى مصلح مع عاملين لصيانة الخزان، كان الرجل لا يرى الأموات لأنهم أغلقوا الباب المؤدي إلى الصالة. نحن أيضاً لا نراه. ولكن فهمنا أنه صاحب مزاج من خلال الأغاني التي كان يرددها وهو يعمل.

أمر المعلم صبيه بإفراغ الخزان.

من أين للرجل أن يعرف أنه نُسي في قعر الخزان بعض أعضاء الجسم المقطعة كالرؤوس والأذرع والأرجل... سمعنا صراخ العامل...

- دخيلك يا معلمي الحقني...

أظن أن الصبي كان يُفرِغ الخزان فأحس بيده وجود شيء ما، فسحبه. وكان سحبه يداً يصافحها وكلما سحبها كانت تسحب معه. لم يكد الصبي يُنهي صرخته حتى طاف على سطح الماء رأس إنسان. أغمي على الصبي وسقط بين الأذرع، الأرجل والجذوع المقطعة. صحا المسكين عندما سقط في ماء الخزان المُعَالج، ثم أغمي عليه من جديد عندما رأى نفسه بين قطع الإنسان تلك... أما المعلم، فهرب وهو يولول. نحن لم نسمع سوى ولولته. أتى فيما بعد إلى مكان الخزان الأطباء، الموظفون والعمال.

كان المعلم يقول مكرراً: "لا أعمل، مهما أعطيتموني لا أعمل هنا."

لم يستطيعوا صيانة الخزان، طوال الفترة التي قضيناها هناك، لا بد وأنهم أصلحوه بعد خروجي.

كان يمر وقتي جميلاً مسلياً في المشرحة. كنت أتمنى وجودك معي كنا تسلينا معاً. كم من الأحداث التي مرت على رؤوس الأموات الذين هناك غريبة مضحكة.

لقد سررت لموتي، كوني استطعت أن أستمع إليهم وأتكلم معهم. يا للأسف... لم يتركوني هناك أكثر من ثلاثة أيام. كنت أرغب في سماع حكايات كل الأموات الذين هناك.

سأحكي لك في رسالتي القادمة ما سمعت من أحداث غريبة.

لك محبتي وأجمل تحياتي

حمار ميت

الرسالة السادسة عشرة

(حكاية ولادة اليهودي في الرابعة والثمانين من عمره)

ذبابة الحمار الحبيبة:

لا تستهيني بالميت فهو أكثر من الحي ضجة. كان الأموات يتكلمون ويتناقشون صراخاً، وكأن القيامة قامت في المشرحة. ليلنا أكثر من نهارنا ضجيجاً. نوم الأحياء يجعل الكون ساكناً، فيتضخم صوتنا كوننا لا ننام. الحمد لله أن الأحياء لا يسمعون صوت الأموات لو سمعونا لظنوا أننا تمردنا أو ثرنا فيفتحون على رؤوسنا البلاوي حتى بعد موتنا.

لم يكن ضجيجنا عراكاً بل أكثر مزاحاً وضحكاً. كان ثمة عجوز لم يشاركنا مزاحنا ولا حتى حديثنا. صامت بشكل دائم. متمدد فوق البلاط - كما تركوه - بلا حركة. إنه كما تفهمين أنت عندما يقال لك ميت. دفعني الفضول للتعرف عليه لكنه لم يرد حتى على أسئلة المجاملة.

نحيف، طويل، غائر العينين، جلده أزرق ملتصق على عظمه. وجهه مبقع. برزت عروق يديه وزنديه ورقبته الزرقاء من جلده، لفته كأنها بيت عنكبوت. عروقه الزرقاء تشبه رسم المياه الجارية في الخرائط الملونة، امتلأ تحت أظافره الطويلة بالوسخ. كان العجوز بهذه الصفات يبدو مقرفاً أكثر وهو ميت.

مساء أحد الأيام، جُلب إلى المشرحة ميت يعرف ذلك العجوز عندما رأى الميت الجديد، العجوز قال:

- آآ، أفرايم هنا أيضاً.

بسرعة، تقربت من الميت. تعرفت على العجوز الميت من خلاله. علمت أن العجوز الميت، ذا الأظافر الوسخة، أفرايم، يهوديّ، غنيّ جداً. بل واحد من الأغنياء المعدودين في اسطنبول. وأنه في الرابعة والثمانين من عمره، كان يعيش وحيداً في شقة من الطابق العلوي من بناء يملكه في (تبه باشي). مضى عشرون عاماً على وفاة زوجته.

– ألا يقال مال الغني يتعب لسان المفلس... صحيح. كان هَمُّ جيران أفرايم غناه. كان يعيش مفرداً، ليس لديه حتى خادمة، لا أعرف إن كان بخلاً أو سبباً آخر.. أقرباؤه كثر، كُثر إلى حد، عندما يأتون لزيارته لا يتسع لهم بيته الواسع، فينتظرون دخولهم بالدور أمام الباب لمدة طويلة، بقدر ما يكون الإنسان غنياً بقدر ما يكون له أقرباء، أليس كذلك؟ أقرباء أفرايم يحبونه كثيراً، هذا الكريه... كانت قريبات هذا (القِفَة) يقتتلن على خدمته، كان بيته يمتلئ ببنات أقربائه القائمات بأعمال بيته، من تنظيف، غسيل، كوي. من الطبيعي أن أفرايم في الرابعة والثمانين لم يُدق في الحياة مثل خازوق. إن لم يمت اليوم فغداً بحجة القيام أعمال البيت، كان أقرباؤه ينتظرون "لحظة الموت السعيد". لم تكن لهم أي نية سيئة. سيحشرون أسماءهم ضمن قائمة الأقرباء الطويلة التي سيعلنون عنها في الصحف، تحت عنوان "فقدان غال".

سألت الميت الذي كان يحكي لي:

– بما أن أقرباؤه سينالهم نصيب من الإرث من كل بد. فلماذا يأتون بيته؟

قال:

– يتبارون، لملء عين أفرايم...

– لماذا؟

- لماذا! أفرايـم غـنيّ جـداً. ولا بـد مـن وجـود لبعـض صفـات الإنسـان عنده... ممكن أن يوصي بشيء ما من ميراثه لمن يخدمه أكثر، أليس كذلك؟

أتت صبيحة أحد الأيام إحدى قريباته مبكرة تدق الباب. لا صـوت مـن الداخل... نوَّحت المرأة "مسيو أفرايم" لفرحها خرج النـواح كأنـه أغنيـة. الخـبر السيء ينتشر بسرعة. أقرباؤه متربصون. تجمعوا أمام بيته.

قال الرجل الذي حكى لي الحكاية:

- أكثر من نصف يهود اسطنبول كانوا هناك:

نودي للشرطة من المخفر، كسروا البـاب ودخلـوا. نعـم حـدث "المـوت السعيد" ما أحسنها!!.. وَضْع الأقرباء ببعضهم عندما فتحت الوصية بعـد مـوت أفرايم. بعض أقربائه شك في موته، قيل أنه انتحر، قيل مات مسـموماً، حـادث، جريمة، موت طبيعي؟ عندمـا لخبـط أقربـاؤه الجـو، ولكـي يرمـي طبيـب البلديـة المسؤولية عن نفسه، أرسل أفرايم إلى الطب الشرعي لتحديد سبب الوفاة.

لا أدري كم مضى على أفرايم في المشرحة، لأنه أُحضر قبلي.

قال الميت الذي يعرف أفرايم:

- ما هذا، يا هوه، كُتب لي أن ألتقي مـع أفرايـم هنـا... يقولـون "الجبـل بالجبل لا يلتقي، الإنسان بالإنسان يلتقي"... مت بعده بثلاثة أيام، والتقيت هـذا النحس هنا.

ذبابة الحمار الحبيبة، ليس لي ثمة غرابة فيما حكيته. الغرابة تبدأ من الآن.

يأخذون من جاء دورهم لتحديـد سـبب موتهـم إلى التشـريح ويتركوننـا ننتظر في الصالة. بعض المشرَّحين يُعاد والبعـض الآخـر يبقـى. أفرايـم أعيـد بعـد أخذه بساعتين. كنت أول من لاحظ الفرق في أفرايـم بعـد إعادتـه ذاك المسـاء، انتفخ بطن ذاك الطويل المعوص مثل طبل وهـل ينتفخـون لتشـكل الغـازات في

بطونهم. أخذوا أفرايم. إذاً لا بد أنهم حددوا سبب موته. نقلوه إلى الكنيس لإقامة مراسم الجنازة. بعد أن أعطي إذن بالدفن من الطب الشرعي.

وقعت الواقعة في الكنيس. هذه الأحداث حكاها لنا أفرايم نفسه لأنهم أعادوه بعد أخذه بساعات.

فَشَّ ورم بطن أفرايم. كنا لا نرى سوى وجهه لأن عاملي المشرحة، مددوا أفرايم على البلاط وكان مغطى بقماش أسود.

لم يعد أفرايم يسكت بعد أن كان لا يتكلم مع أحد. كان يحكي ما جرى على رأسه ضاحكاً أحياناً وباكياً أحياناً أخرى.

وضعوا أفرايم في مكان خاص من الكنيس. امتلأ الكنيس بأقربائه كان الحاخام يسكب ماءً في فم أفرايم في يد ويمسح على جذع أفرايم من رقبته إلى بطنه باليد الثانية. أثناء قراءته للأدعية.

قال أفرايم رداً على تساؤلات مستمعيه، أن الحاخام بهذه العملية يرسل الميت إلى الآخرة نظيفاً من الداخل...

أثناء صب الماء وتمسيد الجسم وقع ما لم يُرَ أو يسمع... سقط طفل من بطن أفرايم. قطع الحاخام دعاءه وتجمد وهو ينظر إلى الطفل، خيم صمت الدهشة علي أقرباء أفرايم الذين ملؤوا الكنيس، ثم عَلا صوت كلامهم كأنهم أخذوا إيعازاً بذلك.

ذبابة الحمار الحبيبة، هذا أنا أكتب لك حديث أقرباء أفرايم. فوق رأسه بالضبط كما حكاه هو نفسه:

– مات بسكتة قلبية. ولكن الحمل هو السبب.

– ما لذي جرى لعقلك، أفرايم رجل، وهل يَحمل الرجل؟

– رجل ما رجل المهم حمل...

– مات الطفل في الداخل عندما لم يجد طريقاً للخروج.

- مات عمي أفرايم بسبب التسمم الناتج عن الطفل.
- لا ياه.. أهذا معقول... انظروا إلى الطفل عمره ما يقارب السنة.
- يعني، كبر في بطنه...
- لهذا كبر بطنه..
- ألم يحدث أن حمل رجل يا ترى؟
- هذه معجزة.
- ألا يمكن أن يكون الخال أفرايم (هيرما فروديت)؟ عندها من الممكن أن يحمل بنفسه. أثناءها، صاحت إحدى قريباته العجائز:
- كان ذكراً، كل شيء فيه ذكر...
لنقبل أن الرجل ممكن أن يحمل، أو من الممكن أن يحمل من نفسه. ولكن أفرايم في الرابعة والثمانين...
- أتقصد أن الولادة بعد هذا السن شيء معيب.
- من الممكن أن يكون غيَّر جنسه بواسطة عملية جراحية.
- ما الذي تقولونه. وهل يبقى جنس عند من في الرابعة والثمانين.
- هذا هو بقي... ألم يلد أمام أعيننا جميعاً؟
قريبته العجوز كانت لا تزال تبكي وتردد:
- كان ذكراً... كل شيء فيه ذكر.
بينما كانوا يتكلمون بهذا الشكل فوق رأسه ظناً منهم أن الأموات لا يسمعون. همس بعض الأقرباء لبعضهم:
- جيد أنه مات قبل أن يلد.
- الحمد لله... لو ولد الطفل...
- لو كان... حياً...
- كان سيحرق نَفَسَنا.. كان سيرث كل أموال الخال أفرايم.

- ممن الطفل يا ترى؟
قطع أفرايم حديثه بعد أن حكى هذا وبكى.
بعدها حكى لأحد الأموات عن سبب بكائه، فقال:
- يا ليتني وَلَدتُ و لم أُبق شيئاً أورثه لأقرباء النحس هؤلاء...
سبب عودة أفرايم لنا أن أقرباءه أعطوا قراراً بإعادة أفرايم مع الطفل الذي ولده في المشرحة ثانية.
استمعنا إلى أفرايم ونحن نقهقه ضاحكين ولكننا تقنا إلى معرفة سر الموضوع.
سر الموضوع - كما قال أفرايم - أنه عندما شككت أقرباؤه في سبب موته. أرسلوه إلى الطب الشرعي وفي نفس الوقت الذي كانوا يشرحونه لتحديد سبب موته كان هناك امرأة وطفلان. قطّع الأطباء وفرّموا، ثم ذهبوا ليكتبوا تقاريرهم بعد أن حددوا سبب الموت، وبقي العمال، أحدهم شق بطن المرأة وحَشَا داخله بأحد الطفلين وبخياطة غليظة أغلق الشق. بعدها قال لزميله مشيراً إلى الطفل الثاني:
- ماذا سنفعل بهذا؟
- أدخله في بطن الختيار اليهودي.
شق العامل بطن أفرايم وحشاه بالطفل الثاني. خلاله بدا أنه صاحب مهارة في هذا العمل. هذا سبب انتفاخ بطنه بعد إعادته إلينا من المشرحة. كان الطفل الذي خرج من بطن أفرايم في الكنيس بجانبه تحت الغطاء الأسود. ما لم نفهمه سبب حشو بطن الرجل بالطفل. بعدها عرفنا السبب من حديث الأطباء والعاملين الذين أتوا إلى المشرحة. يحدد سبب الموت ثم يعطي الأطباء التقرير، بعدها يعطى ما يسمى رخصة دفن ولكي تعطى رخصة الدفن هذه يجب أن

يكون للميت هوية، طبيعي، أما عليك أن تعرف من الذي تدفنه؟ فلهـذا معاملـة طويلة جداً.

حتى يختصروا الزمـن، يشـق العـاملون هنـا بطـن إحـدى النسـاء اللواتـي أعطين "رخصة دفن" ويحشرون أحد الأطفال من الذين ماتوا قبـل إخـراج هويـة في بطنها ليَدفن معها.

نَبْق الولد من بطـن العجـوز اليهـودي كـان نتيجـة ضغـط الحاخـام أثنـاء تمسيده، صرخ رجل أظنه رئيس الأطباء:

- ما هذه المهزلة، سيرتنا على كل لسان، حتى الجرائد... مـا هـذا الـذي فعلتموه.

قال الرجل الذي وضع الطفل في بطن أفرايم ببرود:

- أنا مذ أتيت إلى هنا قبـل عشـرين سـنة، ونحـن نعملهـا و لم يقـع شـيء كهذا... العادة هنا هكذا.. وقد تعلمتها ممن كان قبلي. الحمـد لله حتـى الآن لم تأتنا أية شكاية.

لم أعرف كيـف انتهـت هـذه القضيـة. ولكنهـم أخـذوا أفرايـم في اليـوم الثاني.

عندمـا كنـت في حيـاتي أحكـي لـك عـن حـوادث غريبـة كهـذه كنـت تقولين:

- من جهة وقوع الأحداث الغريبة فلا أنكر وقوعها، لكن ألا يجـد هـذه الأحداث إلا أنت!... كنتِ لا تصدقينني. يمكنـك ذلـك الآن. ولكـن إذا ظننـت هذا... فإنك تقدرين ذكائي. لأنه لا يوجد ذكي - ولا حتى أنا - يسـتطيع أن يأتي بكل هذا الكذب. ذبابة الحمار الحبيبة، حقائق الحياة أغرب من أي خيـال.

ولنرَ أيتها الحياة ماذا سترينا حتى الموت أتركك بخير يا ذبابة الحمار الحبيبة.

حمار ميت

الرسالة السابعة عشرة

(ميت يحكي كيف أصبح قاتل نفسه)

ذبابة الحمار المبجلة:

لا أحد يهتم بي هنا في الطب الشرعي. أظن أنهم نسوني. الأموات لا يستطيعون المطالبة بحقوقهم صارخين "أنا هنا... أنا موجود... أنا أعيش..." في الحقيقة لم أشعر بغربة الموت. لا فرق بين موتي وبين حياتي حين كنت أظن نفسي حياً. لا فرق بين أن تعيشي ولا تستطيعي أن تقنعي من يقودنا بهذا أو تموتي يا عيني؟ نحن متنا قبل أن نموت ولكننا لم نفهم هذا. فهمته عندما مت. ستقتنعين بهذا عاجلاً أم آجلاً.

أسلي نفسي بالحديث مع الموتى في المشرحة. قبل قليل أحضروا إلى هنا شاباً ميتاً في الثانية والعشرين من العمر، كثير الكلام. موته غريب إلى حد لم أستطع إلا أن أكتب عنه. حديثه ممتع جداً. شرح لنا ما وقع له مطولاً. سأنقل لك ما حكاه، بقليل من الاختصار، ولكني سأعمل على نقله بنفس طريقة حكيه. يبدو أنه قد أنهى خدمته في الجيش حديثاً من خلال تقديمه لاسمه الكامل. فهو لا يزال متعوداً على هذا. اسمعي كيف مات هذا الشاب كما من لسانه:

اسمي حسين طوقاي بن شوكت، محافظة شورُم ناحية اسكليب... الثأر سبب كل ما جرى لي، أنا عليَّ ثأر ولكن آل هاصم لا يتركونني... قتلوا من عندنا خمسة أشخاص لم يبق عندنا ذكر يشعل ناراً غيري، ستطفأ نارنا إذا قتلوني.

جماعتنا في يومها قتلوا ثلاثة منهم، المهم أننا قلنا لهم تعالوا نصطلح فلم يردوا. قالوا لا ينتهي الثأر إلا بإطفاء النار واقتلاع جذر العائلة. لم يرضوا إلا بدوام القضية، طالما في عائلتنا رجل وهو في الجيش أمضيت حياتي خائفاً على روحي. بصراحة، أنا جبان. لست من أولئك الذين يضربون ويكسرون. لو كان عليَّ لما استطعت أن أحمي نفسي كل هذه الفترة لكن أمي صرتني بجناحي أمومتها حتى عشت كل هذه المدة. لم أذهب إلى المدرسة لخوفي أن يقتلني أعداؤنا. نصبوا لي كميناً وطخوني عدة مرات، ولكن يبدو أنه كان لي في الدنيا مياهاً سأشربها وأكلاً سآكله، مرقت دون خدش. وأرسلت لي أمي رسائلي باليد - حتى لا يعرف أحد مكاني - قبل نهاية خدمتي بثلاثة -خمسة أسابيع..

قالت أمي في الرسالة "يا بني، يا وحيدي، يا شمعة بيتي، يا زندي وسندي. لم يتركوا لك في بلدك ماء تشرب أو هواء تتنفس. الله يعمي عيونهم عنك. اذهب إلى مدينة كبيرة، غيِّر اسمك، شخصك، ادخل في زحمتها حتى لا يعرفك أحد، تزوج، أسس بيتاً. أنجب أطفالاً ونادِ لي دون علم أحد لأطير لعندك وحتى تنجز كل هذا لا تخبرني بمكانكَ ولا بشغلك".

عملت بما أوصتني أمي أتيت إلى هذا المكان المدعو استنبول ومن أجل خروجي من كوني حسين طوقاي بن شوكت، وتقمصي شخصية أخرى يلزمني هوية جديدة عندما نحضر النقود ليس هناك ما لا يحضر. ونقود أمي موجودة. عندما يكون معك نقود في استنبول لا يوجد ما يستعصي عليك شراؤه من الروح والشرف إلى .... حتى أنهم يقولون إنه ليس لحكاية القنبلة الذرية أساس من الصحة.

القنبلة الذرية كذب وتأليف، لماذا؟ لأنها لو كانت موجودة لوجدت المستعملة منها في سوق الأشياء المستعملة. وجديدها في سوق التهريب. إذا كان

الشيء غير موجود قديمه في سوق الأشياء المستعملة وجديده في السوق السوداء هذا يعني أن لا وجود له مطلقاً. سأجد هوية في مكان ما.

ألا يقال "المريض الذي لم ينته أجله يأتيه الطبيب إلى عند قدميه" سكنت مع رجل يدعى محمد يورتسوارمن السعودية في غرفة فندق يأوي شلة الشباب الحلوين... دخلت، في إحدى المرات إلى غرفتي، فوجدت أن محمد يورتسوار قد نام من زمن. إن كان على النوم فهو نائم ولكنه لا يشخر. مستحيل، تظنه وهو نائم -ان كنت بجانبه - محرك طائرة على وشك الإقلاع. تمددت على سريري، بما أنني تعودت على شخيره فلم أستطع النوم في سكون تلك الليلة. ماذا سأفعل لأجعل محمد يشخر؟ ناديته "ولاه، محمد.." "ولاه، محمد المسعودي" لكنه لم يصح. قلت لنفسي لأحركه قليلاً، دفعته، ألا يسقط.. كأنه قالب، مات الرجل من زمن! أيقظت صاحب الفندق. لم يدفع محمد أجرة الغرفة ثلاثة - خمسة أشهر. فتشه صاحب الفندق ليسترد دينه. فيما إذا كانت معه نقود، فلم يجد. لو رميت ما عليه في الشارع لما مر أحد دون أن تتلخبط معدته. أثناء بحث صاحب الفندق هنا وهناك، وجد هويته فقال "أبيعها لأحدهم، وأسترد ديني"؟ وقعت على يديه وقدميه متوسلاً، دخيلك بعني إياها. جلسنا إلى المساومة لم يكن معي المبلغ الذي طلبه صاحب الفندق. هو يرفع لفوق وأنا أشد لتحت. في النهاية قال "أعطني هويتك فوق نقودك وخذها". يبيع هويتي لرجل آخر ويكمل أجرة الغرفة توافق إعطائي هويتي مع رغبتي بالتخلص من شخصية حسين طوقاي. إذا قلت لماذا؟ لأنه من الممكن أن يتفق جماعة الثأر مع قاتل مأجور ليزهقوا روحي، عندها أكون غير معروف. سيقتل حامل هويتي وأتخلص أنا. اتفقت مع صاحب الفندق. أعطيته هويتي ونقودي، وأخذت هوية محمد. من حينها نسيت أنني حسين الإسكليي وأصبحت محمد يورتسوار المسعودي. وهل أقف بعد أن أخذت الهوية؟ ذهبت من هناك حتى لا يُعرف لي أثر. لم يبق معي ولا قرش

أعطيتها كلها لصاحب الفندق. الله ستر، أن الفصل صيف والطقس حار. أمضيت تلك الليلة في حديقة عامة بدأت أبحث عن عملٍ اعتباراً من صباح اليوم التالي أو الذي بعده، لا أدري. يجتمع بعض المهاجرين من قُراهم في طرف إحدى الساحات العامة ليأتي من يبحث عن عمال إنشاءات ويختارون منهم من يعجبهم. وقفت بينهم. كان بجانبي رجل يقرأ جريدة. رماها على الأرض، بعد أن قرأها... تناولت الجريدة قرأتها. ماذا وجدت في الجريدة؟ أنا مُت. مستحيلٍ أنا لا أصدق. الجريدة كتبت "وجد المدعو حسين طوقاي من قرية إسكليب ميتاً في غرفة فندق في (طوب خانة) وقد تبين نتيجة ذلك المعاينة أن المدعو قد مات خنقاً والشرطة تتعقب أثر القاتل وستجده في أقرب وقت." هل أفرح أم أحزن لهذا الخبر سأفرح بالطبع، لأن الذين سيثأرون مني سيكفون عن مطاردتي. وسأحزن لأنه يجب على الإنسان أن يحزن لموته ولو كان كذباً.

المهم أنني أعيش بشخصية محمد يورتسوار المسعودي. إذا وجدت شغلاً مهما كان نوعه، أشتغل ولكن أين الشغل؟ أجد شغلاً ليوم ولا أجد لخمسة أيام. الله يشهد عليّ أنني أمضيت لا أدري كم يوماً بالضبط، ثلاثة - خمسة، دون أن تدخل فمي لقمة واحدة حتى لم يعد لي قوة للوقوف من الجوع. تتلامع أمام عينيّ ألوان وأضواء لم أعتد عليها. بالحساب أبحث عن عمل. لكن لو خرج أمامي أحدهم وقال: "احمل هذه الحقيبة لمسافة مئة متر وخذ عشرة آلاف ليرة لما استطعت حملها." بينما كنت أجرجر نفسي إلى إحدى المقاعد الخشبية في إحدى الساحات لأتمدد عليه، قامت القيامة لا أدري كيف. الناس كالسيل يندفعون إلى الساحة من كل أطرافها ليشكلوا بحيرة وسطها. قل ألفاً.. قل خمسة آلاف شخص، يتصايحون... يتدافعون... يتلاحقون... لم أفهم ما يريدون ولا مايقولون. لم أفهم لماذا كانوا يضربون بعضهم... أردت الهروب من بينهم ولكن لا قوة لي للهرب. ينهالون على بعضهم بالحجارة والعصي حتى لتظن أنها حرب

حقيقة، ساقطون على الأرض، جرحى صارخون، باكون، طالبو نجدة، متوسلون... الدماء تجرف تراب الأرض لشدة سيلانه. ما الذي جرى لهؤلاء الناس يا هوه؟ كأنهم قطيع ثيران أو تيوس يتراكضون هنا وهناك. قطع طريقي مجموعة من الشبان والبنات. سألتني من بينهم فتاة:

- من أين أنت؟

ما الذي سأقوله الآن، إسكليبي أم مسعودي، لخوفي من السؤال عن هويتي قلت:

- من المسعودية.

- لا أحد يسألك عن بلدك. يميني أم يساري؟

لم أفهم سؤالهم حتى أنني لم أفهم شيئاً مما كانوا يهتفون. بالرغم من أن اللغة التي كانوا يتكلمون بها تركية. لحظة قولي:

- اعذروني لا أعرف ما يعني هذا.

- نزلوا عليَّ بالعصي وهم يقولون:

- كل ما يجري لنا بسبب أمثالكم، الواطون، الذين لا يعرفون أين هم.

عندما سمعتهم يقولون هذا، قلت لنفسي لعلي أنجو إذا قلت لهم أين نحن.

- أعرف يا أخوان، أعرف أين نحن وإلى أين يؤدي هذا الطريق أو ذاك. نحن في _التقسيم) وهذا الطريق ينزل إلى (قاسم باشا) ومن هنا إلى _بشكطاش)...

ضربوني إلى أن أصبحت مثل (فِشكة) حيوان داس فوقها عَجَلٌ شاحنة. ثم تركوني لا أدري إذا كانوا فعلوا ذلك شفقة أم أنهم ظنوني مت. عدت لا أعرف أين قدمي، رأسي، زندي، لأقف وأهرب. كدت أُصبح تراباً لكثرة ما داسني المطارِدون والمطارَدون قلت لنفسي اتحرك ولاه... يا الله من عزة الروح

استجمعت نفسي ووقفت. لم أكد أخطو خطوتين أو ثلاث خطوات نحو المقعد حتى طوقتني بمجموعة أخرى من الشبان. سأل أحدهم:

- أأنت يميني أم يساري؟

سيكسرون على ظهري شاحنة عصي لو قلت للآخرين، لا أعرف. نظرت في وجوههم لعلي أقرأ أي من هاتين الكلمتين يحبون ثم قلت:

- يميني والحمد لله.

أتتني رفسة على وسطي من الخلف، طيرتني في الهواء وسقطت على بعد عشر خطوات. كيف يرفسون هؤلاء ويضربون؟ أما عندهم رحمة؟

- لا يا شباب أنا انتهيت من زمن...

وهل بينهم من يسمع؟

أنا لم أجد أكثر من جنس البشر تحمّلاً، يتحمل أكثر من الحجر والصخر. كيف تحملت كل هذا الجوع وفوقها العصي والرفس، يا هوه...

عندما تركوني ليذهبوا إلى عراك آخر، استجمعت ما بقي عندي من قوة وبدأت الهرب. لو تركوني لهربت، متعكزاً، زاحفاً، غير مهم، ولكنهم لم يتركوني خرجوا أمامي مرة أخرى.

- أيميني أنت أم يساري؟

سيقتلونني إن قلت لا أعرف أو يميني. وهل أنا أهبل لأقوله؟ قلت:

- يساري والحمد لله.

نزلت العصي فوق رأسي. لم نخزر مرة أخرى. أيهما قلت لا تخلص من الضرب. تركوني بعد أن حولوا أنفي وفمي إلى صحن من الدم. ذهبوا إلى معركة أخرى، وحاولت الهرب. قبض عليَّ آخرون:

- أيساري أم يميني؟

سيضربونني أيما اخترت: وصلت روحي إلى أنفي. قلت لنفسي، الموت حق صحت قائلا:

- أنا يساري، ماذا ستفعلون؟

الحمد لله، حزرت هذه المرة. لكن التحقيق لم ينته:

- من أي يساريين أنت؟

ما هذا التحقيق يا هوه. أصعب من تحقيق أنكر ونكير. على حساب أنني عملت فهلوية وقلت:

- بالطبع منكم.

قالوا شيئاً لم أفهمه تكلموا بغرابة ثم انهالت العصي فوق رأسي وهل بقي عندي روح. رغم هذا لم أمت. إنني على ما أظن بسبعة أرواح... قبض عليّ من قبل آخرين:

- يميني أم يساري؟

خطر ببالي جواب أمي عندما تسأل "هل أنت من هذا أو ذاك" كانت ترد "لا من هذا ولا من ذاك".

- لا يساري ولا يميني، أنا رجل مثلك.

ظننت أنني سأخلص. لكن ما العمل؟ سأتلقى اللكم والرفس والكفوف والعصي على أي جواب أعطيه. صرخوا في وجهي:

- قواد، جاهل...

قال أحدهم:

- واحد بلا لون! وبصق في وجهي.

ظننت أنه قال هذا لأن لون وجهي قد ذوى:

- دخيلكم يا أخوان. أنا جائع منذ أيام... أو يترك الجوع لوناً في وجه...

غضبوا أكثر هذه المرة، وبدأوا بالضرب من جديد. أظلمت عيناي إثر ضربة قاسية على رأسي. إثرها تكومت على الأرض و لم أدرِ ما حدث...

صحوت بعد فترة لا أعرف طولها على أنني محمولٌ إلى سيارة إسعاف ولكن لم أستطع حتى تحريك لساني...

وقفت سيارة الإسعاف عند باب المشفى. ثمة أشخاص منهم من مات ومنهم مثلي بين ميت وحي...أنزلوني. كان أحد البوابين يختار من بعيد:

- هذا ميت. خذوه إلى البراد... هذا على وشك الموت، هذا حيّ. لا تكوموا الأحياء فوق بعضهم ولاه... هذا لا يُعد حياً. ارموه في البراد...

أنزلوني من سيارة الإسعاف. وضعوني على الأرض أمام باب المشفى. وقف البواب فوق رأسي. نظر إليّ وقال:

- ميت. خذوه إلى البراد...

ما عندي قوة للحركة ليعرفوا أنني لست ميتاً، أو قوة للكلام لأصرخ دخيلكم أنا لم أمت بعد.

بعد فرز الذين أنزلوا سيارة الإسعاف "ميت، لم يمت بعد، كيفما كان سيموت لا يزال حياً" أمر البواب قائلاً:

- فتشوا الأموات واعملوا قيد سجل الوارد لمن يحمل هوية، ثم ارموه في البراد.

غضب البواب عندما قال أحد الرجال "لماذا القيد، ميتون." وقال:

- أين تعيش أنت يا أهبل ولاه!!ـ لا أحد يسألك عن الأحياء إنهم يحاسبونك على الميتين. إذا لم تسجل الميتين من أين لهم أن يعرفوا من سيدفن.

فتشوني أخذوا هويتي - أي هوية الميت في غرفة الفندق محمد المسعودي - من جيبي ليسجلوا أنني ميت.

حملوني مع ميت آخر على نقالة ورموني بالبراد. عندما حل الليل - لا أدري إذا كان من برد البراد صحوت، وقفت واستندت إلى الجدار، بدأت أفكر. هناك احتمال الطرق على الباب والصراخ أنا لم أمت. ولكن هل سيصدقونني، خفت أن يعرفوا أنني لست الذي مات في غرفة الفندق وهناك احتمال - وهو الأفضل - الهرب دون أن أقول لأحد.

لم أمت من الضرب ولكني أكاد أموت من الجوع. كسرت زجاج غرفة البراد وهربت كأن شيئاً يدق فوق رأسي شبيهاً بالعصي التي كانت تنزل عليه. الألم لا يحتمل. وبينما كنت أجرجر نفسي بصعوبة رأيت مقهى، دخلت:

- دخيلك، كأس شاي.

قبل أن تأتي الشاي. دخل مجموعة من الرجال، أي دخول. صاحوا قائلين:

- لا تتحركوا ارفعوا أيديكم.

وقفنا ورفعنا أيدينا. نظرت إلى الآخرين وإذا بهم يرتجفون خوفاً، كارتجاف أوراق الحور أثناء هبوب الرياح. وبما أن الجميع يرتجف فعليَّ أن أرتجف أيضاً ولكن لا قوة لي حتى على الرجفان.

عرفت أن الداخلين مباحث، يفتشون ويحققون لمعرفة المحرضين على حوادث ذاك اليوم، فتشوني أيضاً. لا يوجد معي مسدس أو سكين بل حتى دبوس. قال أحد الشرطة الذين يفتشون:

- ما هذا الذي في رأسك وعينيك ولاه...

قبل أن أفتح فمي قال آخر:

- هويتك.

لا أستطيع أن أقول له إن هويتي في المشفى الذي هربت منه. ياه قلت:

- ضيّعتها.

- ارموه في السيارة.

كثير مثلي في سيارة الشرطة. رمونا جميعاً في أحد أقبية مديرية الأمن.

المكان هناك مزدحم كمستودع. حبسوني ثلاثة أيام دون أن يسألوني شيئاً. المهم أنهم كانوا يعطوننا زاداً وماءً. الآخرون معهم نقود. ليسوا مثلي يجلبون من الخارج صحفاً. أنا أقرأ صحفهم. ألا أرى صورتي في إحدى الجرائد. ولكن أين أنا، حسين طوقاي أم محمد يورتسوار. مكتوب تحتها "حسين طوقاي المقتول خنقاً" جميل. الصورة صورة الهوية التي تركتها لصاحب الفندق ولكن السيء، خبر الجريدة الأخرى. لا يوجد صورة ويقول الخبر"لم يكن الشخص المخنوق في غرفة الفندق في (طوب خانه) حسين طوقاي بل محمد يورتسوار، والأول هو القاتل ويستعمل هوية الثاني......... واخ، ماذا سيحدث الآن.

أخذوني مع مجموعة من الناس إلى غرفة التحقيق.

- ما اسمك؟

لا أستطيع القول أن اسمي حسين طوقاي، لأن حسين طوقاي قتل في الفندق ولا محمد يورتسوار لأن هذا إما القاتل أو المقتول.... موقف ملخبط تماماً، ولأنني تركت هويتي في المشفى قلت:

- محمد يورتسوار

قطب وجهه أحد الجالسين هناك عندما سمع اسمي وكنيتي. ويبدو أنه رئيسهم. أصبح كأنه ينظر إلى شيء مقرف وقال:

- أين أنت من حب الوطن ولاه... ما عندك لتحب به الوطن... وهل أهمل حب الوطن حتى وصل إلى عندك. ولاه، سفيه.

---

* كلمة يورتسوار، مركبة من يورت تعني وطن وسيوار تعني يحب أو محب وتصبح مركبة (محب الوطن).

الشرطة تلاحق محمد يورتسوار حسب الجريدة ومحمد يورتسوار أمامهم. لفرحتي بعدم معرفتي بي تجاوبت معهم وقلت: يورتسوار أمامهم. لفرحتي بعدم معرفتي بي تجاوبت معهم وقلت:

- معك حق يا سيدي. أستغفر الله وهل يستطيع أمثالي نيل شرف حب الوطن. ولكن كنيتي هذه سجلها أحد موظفي النفوس لوالد جدي، دون علمه طبعاً.....

قال أحد رجال الشرطة:

- ما كان اسمك؟ قله مرة أخرى؟

قلت:

- محمد يورتسوار...

لكني ندّيت تحتي لشدة خوفي.

- من أين أنت؟

- من المسعودية.

قال للجالس على الطاولة:

- سيدي، هذا أحد المتهمين بقتل حسين طوقاي. حسب إفادة صاحب الفندق أن محمد يوتسوار كان يقيم مع المغدور حسين طوقاي في الغرفة نفسها.

صرخت قائلاً:

- أبداً.

- ألم تسكنا نفس الغرفة؟

- نعم لكن لم أقتله.

- إذا لم تقتله فلماذا هربت و لم تعد إلى هناك مرة أخرى.

أنا في موقف سيء جداً. سأصبح قاتلاً لنفسي إذا قلت نعم قتلته. بينما لا على بالي ولا على خاطري سأصبح قاتلاً. وإذا قلت لم أقتله سيسألني عن سبب هروبي.

قال الجالس خلف الطاولة:

- نادوا لي بقية المتهمين، واحداً واحداً.

أدخلوا ولداً (ممعوصاً) في الخامسة عشرة من عمره. لم يعد يستطع الوقوف على قدميه لشدة الفلقة التي ضُرب. يستند إلى الجدار ليقف ثم يسقط. حققوا معه من حيث سقط جالساً:

- احكِ لنا كيف قتلت حسين طوقاي.

لكثرة ما أكل الولد من الفلقات ليكرر حكاية قتله لحسين طوقاي - أي أنا - حفظها غيباً كما يحفظ تلميذ المدرسة، بدأ يقرأ:

- خدعني، بأنه سيعطيني نقوداً. أخذني إلى غرفة الفندق ثم قال لي "اشلح ثيابك......." استغفر الله.... أنا يا هوه، متى؟ حسب ما يقول - بعيد من هنا - اعتديت على عرضه... ولما أكلت عليه النقود، خنقني. زعلت، نسيت أنني محمد يورتسوار فقلت صائحاً:

- والله بالله يكذب، ما عندي أي عادة سيئة كهذه... ولكن الذي خلف الطاولة قال:

- خذوه واحضروا الآخر.

أتوا برجل عَبَرَ الستين، هذه المرة. قال أنه قتلني لأنني لم أدفع له دينه الذي خسرته بالقمار. قال أننا جلسنا في الغرفة ولعبنا قماراً وخسرت و لم أدفع النقود... فاضطر إلى قتلي. أحضروا خمسة متهمين بقتلي. نظرت في وجوههم لا يبدو عليهم هيئة البشر. أفكر أن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من بني آدم ولكن يقع على الإنسان ما يجعله... لا يعرف إلا من وقع له. المهم قالوا أنهم خنقوا

حسين طوقاي. أما أنا؟ عندما سطّحوني تحت العصا، حكيت الحكاية كما لو أنني خنقت نفسي مئة مرة حتى ذاك اليوم...

- فهمنا، أنت الذي خنقت حسين طوقاي... اعترف. لماذا خنقته؟ يا هوه، ماذا سأقول الآن... الخمسة الآخرون ذكروا كل ما يدفع إلى القتل. لخوفي أن يعودوا بي إلى الضرب قلت:

- أتركها لوجدانكم الرفيع يا سيدي كما تقولون.

- من قتلت غيره.

- الذين ترونهم مناسبين، خنقتهم يا سيدي....

- لماذا قتلته؟

لكي أتخلص من الضرب، صرخت فجأة:

- ثأر يا سيدي.

في تلك الأثناء أحضر رجال الشرطة رجلاً. أحد أثنين اعترفت بقتلهما. عندما عرف أنه لم يمت، قبضوا عليه وجلبوه. عندها قال الرجل الذي كان يحقق معي:

- عندك حظ، لقد أُنقذت من إحدى الجنايات.

قلت:

- الله لا يحرمنا إياكم يا سيدي.

قال الذي خلف الطاولة:

- كلكم كذلك. تعترفون هنا. في المحكمة تنكرون. لم أفعل، لم أتكلم، لم أر.....

قلت:

- أستغفر الله يا سيدي. وهل أصابع يدك مثل بعضها. لا تظنوني من أولئك السافلين.. أنا لا أكذب... لا أعود بكلامي حتى لو قتلتموني، خنقته يعني خنقته.

عندما سأل الذي خلف الطاولة رجاله:

- ألا يوجد جناية أخرى مجهولة الفاعل؟...

عرفت أنهم سيأخذونني إلى الفلقة من جديد. حينها بدأت أحكي قصتي وأنا أبكي.

- عن أذنكم يا سيدي، حسين طوقاي المقتول خنقاً في غرفة الفندق، هو أنا...

حكيت له كيف هربت من قضية الثأر، وكيف اشتريت من صاحب الفندق هوية المخنوق محمد، وأنني لا أستطيع أن أخنق نفسي بنفسي، وكيف ضُربت عندما قلت أنني يميني ثم ضُربت عندما قلت، يساري، ثم ضُربت عندما قلت، أنا لا من هذا ولا من ذاك، أنا رجلكم أنتم. كيف رموني في براد المشفى عندما قال البواب أنني ميت. كيف هربت من هناك. كيف ألقي القبض عليّ في المقهى. كانت تسيل الدموع من عينيّ بشكل، حتى لو كان حجراً لتألم على حالتي... ظننت أنهم سيتركونني، ولكنهم سطحوني تحت العصا. أقول "أنا المقتول" ينزلون بالعصا، أقول "أنا القاتل" ينزلون بالعصا أكثر... "أنا القاتل والمقتول" عصا،... "أنا قتلت نفسي"، عصا...

ذبابة الحمار الحبيبة هكذا حكى لنا الشاب الذي في المشرحة الأحداث التي وقعت له ثم سكت. فسألته:

- لماذا مت؟

لوى رقبته، وقال:

- لماذا يموت الإنسان، أنا ككل البشر، أتى أجلي.

قال أحد الموتى:

- وهل تسأل واحداً أكل كل هذا الضرب، لماذا مت؟

بعد أن سكت الشاب قليلاً، أضاف قائلاً:

- هم استغربوا موتي مثلكم أيضاً، لذلك أتوا بي إلى هنا، ليقطّع الأطباء جسدي، ليعرفوا لماذا مت. أناس غريبون للغاية. لم يسألوا لماذا وكيف مت، ولكن سبب موتي مهم جداً بالنسبة للدولة...

بعد قليل، أخذ عمال المشرحة جسد الشاب محمد يورتسوار، أو حسين طوقاي إلى التشريح، ليقطعوه ويفرموه ويحددوا سبب موته بشكل علمي، ثم يكتبون تقريرهم لتتم معاملته.

ذبابة الحمار الحبيبة، هناك حكايات أخرى استمعت إليها من الأموات. سأكتب إليك في الرسالة القادمة ما جرى على رؤوسهم. مع تمنياتي باللقاء القريب.

حمار ميت

الرسالة الثامنة عشرة

(رجل يحكي كيف أصبح طريح المشفى نتيجة تبديل زجاجة البول)

عزيزة الروح، ذبابة الحمار:

لم أمضِ حتى في الأيام التي حسبت نفسي أعيش فيها مثل الأيام التي أقضيها في الطب الشرعي. ممكن أن يكونوا نسوني هنا. لينسوني. أبشركِ، أنت أيضاً سوف لا تدفين خازوقاً في الدنيا الفانية تلك. لا بد وأن تخرجي في سفر المقبرة. لا تنسي أن تتدبري طريقة ما، لتبقي أكثر زمن ممكن في الطب الشرعي.

نحن الموتى - في المشرحة - نكون أكثر راحة في الليل. لا داخل ولا خارج من المكان الذي نحن فيه. لذا، يكون نقاشنا وحديثنا أمتع. نتجاذب أطراف الحديث، وفجأة نجد أن مؤتمراً قد انعقد، دون تخطيط. في الليلة قبل الماضية كان لدينا مؤتمر. انضم إليه كل الموتى. افتتح المؤتمر بسؤالي لأحد المسنين:

- ما هو عملكم؟... وجدت من خلال حديثه أنه ليس مسناً إلى ذاك الحد. قال:

- سمسار طبيب... أقصد قبل أن أموت..

ولأني لم أسمع بمهنة سمسار طبيب سألت:

- كيف هذا العمل؟

ضحك بقية الأموات ساخرين لقلة ثقافتي.

- يسمى من يجد الزبائن لطبيب لم يجد عملاً في أحد المشافي، أو لم يشتهر بعد "سمسار طبيب" سألته:

- زبائن؟

وضح لي قائلاً:

- يعني مرضى...

سأل مريض آخر عن سبب عدم استخدام الأطباء الذين يعملون في المشافي أو المشهورين للسماسرة.

- لا بد للمرضى، من أجل الدخول إلى المشفى، أن يمروا من عيادة طبيب خاصة. فلماذا يدفعون للسماسرة.

دخل الحديث ميت آخر:

- لم يقل على الفاضي "الزكاة التي لم يدفعها الإنسان تذهب في حياته على الأطباء وبعد وفاته على المشايخ".

- كما طريق نجومية الفتاة في السينما يمر من غرفة النوم، طريق سرير المشفى للمريض يمر من عيادة الطبيب الخاصة.

قال سمسار الطبيب:

- مهنتنا سهلة كما يظن البعيدون عنها - ليس من قبيل مدحي لنفسي

- لم يكن هناك أشطر مني في مهنة السمسرة للأطباء في حياتي. أنا معلم في هذه الشغلة. لأقل لكم هذا المثال وأنتم قيسوا: "أستطيع أن أقنع بطل عالم بالمصارعة بأنه مصاب بمرض أنثوي. وأجعله يذهب بإرادته إلى طبيب نسائي" لولا الموت المفاجئ لكنت كسبت الكثير.

سأله أحد الأموات عن كيفية حصوله على تلك الخبرة. قال:

- حكاية طويلة. تعلمت هذه المهنة لكثرة ما وقعت بين أيدي السماسرة.

حكى حكايته نتيجة اقتدار الموتى، كان ولداً لأكبر أغنياء إحدى القرى. كلمته لا تصبح اثنتين. عندهم الحقول، الحيوانات، المخازن... لم يكمل دراسته

بعد المدرسة المتوسطة. لم تكن في عينه أموال أو أملاك. يريد أن يصبح شرطياً. هذه الشغلة رسخت في عقله منذ كان طفلاً. هكذا حكى لنا:

- من أين لَبَستْ عقلي هذه الشغلة؟ الجميع، عندنا هناك يخاف من ذكر كلمة "شرطي". كنت أظن في صغري أن أكبر رجل في الدنيا هو الشرطي... آه... بذته، مسدسه،... أما صفّارته... نفخة واحدة فيها، يتخشب حتى الطير الذي في السماء... عنادي في أن أصبح شرطياً أتى من هذا على ما يبدو... قال والدي "لا حاجة لنا بالنقود. ليصبح شرطياً لفترة، ثم يمل فيترك..." عندما جهزت أوراقي وتقدمت بطلب. كل شيء على ما يرام. قالوا لي "تحتاج لتقرير طبي من إحدى المشافي الكبيرة" ما عندنا مشفى مثل المشافي. ذهبت إلى المدينة. لم يبق في جسمي شيء لم يعاينوه. خرجت سليماً من كل المعاينات. تعثرت عند تحليل البول. عندما أتى تقرير المخبر، قال الطبيب، دون مقدمات انه عليَّ أن أدخل المشفى فوراً، لأنني مصاب بمرض اسمه "البومين" هذا المرض لا يعالج كبقية الأمراض بالدواء دون نوم. إذا لم أنم في المشفى فوراً، سأموت. والدي معروف هناك، ويعدون له خاطراً. اتصلوا به هاتفياً فأتى. الحمد لله أنني تقدمت للشرطة وعملت تحليل بول، وإلا كنت سأموت بعلتي دون معرفة السبب.

أنا لم أفهم هذا المرض. قبل دخولي إلى المشفى، كنت شاباً أثني الحديد وأقطّع النحاس وأكسِّر الحجر. ذبلت خلال شهر من دخولي المشفى. كانوا يُبلّعوني كل يوم (كمشة) حب ويضربوني (دزينة) أبر. بدلاً من أن أتحسن، كنت أتقهقر. أصبحت مثل (خيط الماكينة). لم أعد أستطيع الذهاب إلى المرحاض. كنت أتبول في المبولة الموضوعة تحت السرير بشكل دائم.

في صباح أحد الأيام، قفزت من السرير على صوت كالهدير. استفسرنا عن ذاك الصوت. ما الذي علمناه؟ نتيجة تحليل بوله، رجل في الستين، حامل. جن جنون الرجل عندما أخبروه بالحمل. تحليل البول يبين فيما إذا كانت المرأة

حاملاً أم لا. عندما أتى تقرير المخبر أن الرجل حامل. بدأوا يسخرون منه... فضيحة ... الرجل عنده أحفاد... أتى إلى المشفى لكي يطخ بالنار الطبيب الذي أعطاه التقرير. علمنا قبلها أنه نتيجة تحليل البول لامرأة، **أعطيت تقريراً بأنها** مصابة بالسيلان. وكاد زوجها يقتلها. ففهمنا أن زجاجة البول لهذا الرجل تبدلت مع زجاجة البول لتلك المرأة.

قال أحد الأموات:

- كدت أموت نتيجة تبديل تحليل الدم بيني وبين شخص آخر عندما أعطوني دماً. من زمرة مختلفة.

رد عليه ميت آخر:

- ألم تمت في النهاية؟

- مت ولكن بعد ثلاثة أشهر... لقد عانيت ثلاثة أشهر أخرى في المشفى. كان مقرراً أن أُعطى (سيروماً). بحثوا عن الطبيب المناوب فلم يجدوه. لا يوجد ممرضة مناوبة أيضاً... لا أحد يعرف أين يتواجد خدم المرضى... بعد بحث هنا وهناك، وجدوا أحد الأُذّان، وهذا بدأ عمله منذ فترة قريبة... الآذن ذاك لا يعرف ما هو (السيروم) ولكن يمكن أن يعطيك حتى زجاجة دم. البعض، قالوا له أن الدم ممكن أن يكون مضراً إذا أعطي بدل (السيروم). ولكن رد الآذن مصراً: "هذا دم، لا يمكن أن يكون مضراً،... الدم يعني قوة." وهكذا مُت.

قال أحد المؤتمرين:

- ليس هناك أصدق من قول "كل إنسان يخطئ، ولكن خطأ الطبيب لا يستره إلا التراب".

في أحد الأيام تبدلت صورة الأشعة لبطن امرأة مع صورة الأشعة لعقل رجل. يومها كادوا أن يجروا جراحة استئصال ورم خبيث من رحم المسكين

المجنون بالرغم من أن المجنون كان يقول "أنا لست امرأة حتى يكون عندي رحم..."

سألناه كلنا مندهشين:

- ماذا حصل هل أجريت له العملية؟

حكى لنا:

- خدروا المجنون ليأخذوه إلى العملية... سحبوه على الطاولة ذات الدراجات إلى غرفة العملية في الغرفة، كان المجنون مغطى بغطاء أبيض. الممرضات جميعهن يلبسن قمصانهم البيض والكفوف ولا يظهر من وجوههن المغطاة إلا عيونهن... قال البروفيسور الجراح لرئيسة الممرضات "افتحي يا ابنتي..." سيرفع الغطاء ليرَ ما بين فخذيها، ليشق كي يصل إلى الرحم ويستأصل الورم... بيد الممرضة صينية عليها المشارط والمقصات، وكافة أدوات العملية... كشفت رئيسة الممرضات الغطاء الأبيض عن وسط المجنون... ا لله... وجدت الأعوذ با لله منتصباً.. صاحت رئيسة الممرضات "ااا..." أليس من حقها أن تدهش حتى ذاك اليوم لم تجد عند أي امرأة شيئاً كهذا... فُهم فيما بعد أن صور الأشعة تبدلت وأنقذ المجنون. واضح تماماً أن الرجل المجنون لا يمكن أن يعمل عملية رحم... ماذا كان ممكناً أن يحصل لو أُجريت جراحة دماغية للمرأة...

تابع الميت الذي بدأ التداوي لمرض (الألبومين) عندما أراد أن يصبح شرطياً:

- أفقت لنفسي عندما علمت أنه نتيجة تبديل زجاجات البول أُعطي تقرير لرجل في الستين أنه حامل ولامرأة مصابة بالسيلان. لابد أن تكون زجاجة بولي تبدلت مع زجاجة شخص آخر. طلبت تحليل بولي مرة أخرى. لم يجدوا في بولي (الألبومين) هذه المرة. قالوا: نتيجة لمعالجة شفي من (الألبومين)... مع أنه لم يكن في الأصل عندي ألبومين... ولكن خربت كليتاي ومعدتي، أي

كل أعضائي الداخلية، بدأت هذه المرة، آخذ علاجات لأحشائي الداخلية. أدوية معدة، أدوية كلاوي... وهل يُبقي المرض نقوداً، أنا وحيد لأهلي. والدي يدفع النقود كمشاً... حالتي تسوء من يوم إلى يوم. كنا في الكليتين والمعدة. أصبحنا في ألم العظام الذي لا يطاق. لم تبق مشفى عندنا هناك لم أنم فيها أو طبيب لم أُعرض عليه. سيقتلونني عينك، عينك. أردت أن أذهب للشرطة فكادت أن تذهب روحي. قلت، لأذهب إلى اسطنبول وأعرض نفسي على الأطباء هناك.

قال أحد الأموات:

- كأنهم سوف لا يقتلونك في اسطنبول.

تابع المهووس بالشرطة:

- كيفما كان، الموت في اسطنبول شيء مختلف... أرسل والدي معي رجلين. نزلنا في محطة حيدر باشا للقطارات. كنت ماشياً وسط الرجلين متأبطاً ذراعيهما لأنني لا أستطيع الوقوف على قدمي. اندس رجل بجانبي وبدأ الحديث سائلاً "واخ واخ... هذا السبع مريض... ما مرضه؟..." لم يكن لدي القدرة على الإجابة، حكى له الرجلان اللذان رافقاني ما جرى. عندها قال الرجل "لقد تألمت على الشاب. سأعمل معروفاً وأكسب عليه الثواب. أنتم غرباء عن اسطنبول ولا تعرفون إلى أي طبيب ستذهبون. سيحترق نفسكم لو وقعتم بين أيدي جماعة الأطباء لقد جرى لوالدي ما جرى لهذا الشاب. أنقذه - الله يرضى عليه - طبيب جيد. من يرى ولدي الآن لا يعرفه من الصحة التي كسبها على يدي ذاك الطبيب، لآخذكم إليه."

كم من الناس الطيبين في هذه الدنيا. بدأنا ندعو للرجل. ركب معنا السفينة ثم ركبنا (تاكسي) قلنا له "سوف لا نحملك مشقة. يكفي أن تعطينا عنوان الطبيب". قال لنا "ماذا؟.. وهل ماتت الإنسانية؟.. أنا أعرف ما المرض.

سآخذه وأسلمه بيدي للطبيب، سأقول له أنكم من أقربائي ليهتم بكم أكثر ولا يأخذ منكم نقوداً زيادة..."

ترك الرحل عمله وذهب معنا إلى عيادة الطبيب.

نعم، أليس الرحل الطبيب سمسار أطباء؟ ينتظر عند رصيف السفن أو محطات القطار. عندما يجد مريضاً غريباً مثلي يأخذه إلى طبيب متفق معه على أنه يعملها لكسب الثواب ويتقاضى من الطبيب (كمسيوناً).

سأل أحد الأموات:

- كيف عرفت؟

- إيه. سهلة مر ذلك اليوم حتى مماتي عشر سنين لا أكذب لو قلت أنه لم يبق طبيب في اسطنبول لم أعرض نفسي عليه.

دفع والدي كل ما يملك من أجل علاجي. أصبح فقيراً. أتى إلى اسطنبول واشتغل ليدفع للأطباء. بعد موت أبي بقيت وحيداً ومريضاً بشكل لم يبق في جسمي مكان إلا ووجعني. قال لي أول طبيب ذهبت لعنده أن مرضي روماتيزم وهذا الروماتيزم أتاني بسبب مرض في أسناني. ذهبت إلى طبيب الأسنان. سن وراء ضرس قلعوا كل أسناني وأضراسي. لم تخف آلامي بل على العكس، ازدادت. أرسلني طبيب الأمراض الداخلية إلى اختصاصي آخر. تحولت من طبيب إلى طبيب. وبينما أنا على هذه الحال قيل لي أن المجاري البولية...

قاطعه أحد الموتى سائلاً:

- ماذا جرى لمجاري البول.

- وأي شيء فيَّ لم يحدث له شيء. لقد خرب عياري. بينما كنت أداوي معدتي، خربت أمعائي الزموني من أجل تداوي أمعائي. كدت أن أصاب بالسل لقلة التغذية. من أجل إنقاذي من السل، عليَّ أن أتغذى جيداً، عندما أتغذى جيداً تخرب معدتي. العلاج الذي آخذه ليداوي معدتي يؤثر في كبدي. علاج

الكبد يضر قلبي. علاج القلب يرفع نسبة السكر. لقد أصبحت في حالة احتمعت عندي كل الأمراض ولا أستطيع أن آخذ علاجاً لأي منها. لأنه سيضر بالآخر.

(اجلس أعوج وتكلم صح). لقد أفادتني هذه الأمراض في تعرفي على عدد كبير من الأطباء. استعملني بعض الأطباء في تجاربهم حتى أنهم وصلوا بنتائجهم إلى المؤتمرات الدولية. كُتب عن أمراضي مقالات في الصحف والمجلات. أصبحت علمياً. طُبعت صوري في كتب الطب. لم يبق معي نقود. ليس للأطباء والأدوية بل حتى أجرة الفندق... أصبحت في الشارع، فوقها مصاب بكل هذه الأمراض والآلام. ذهب المال والغنى. الدنيا هكذا... البعض يصرف نقوده في القمار، والبعض على النساء، أنا صرفتها على الأطباء. ذهبت إلى الطبيب الذي أخذني إليه الرجل الذي التقاني عند السفينة، وشرحت له الوضع.

قال:

- من أتى بك إلى هنا أول مرة.

قلت:

- سمسار.

- جميل... هذا أنت صاحب مهنة... ماذا تريد أكثر من ذلك. أنت تعرف الكثير من الأطباء وتعرف السمسرة. ماذا بقي؟ وهل يمكن أن يكون هناك سمسار أطباء أحسن منك؟

صحيح ياه. لقد أصبحت خبيراً في هذه الشغلة بدأت السمسرة للأطباء. بينما كان الشغل كثيراً والنقود مثل السيل. فجأة... وكأنه لم يبق في هذا الوطن أي شيء سيّء وكل شيء منظم، بدأت الجرائد تتكلم عن سماسرة الأطباء. هكذا وقف شغلنا فترة لم تطل - لله الحمد - فتحت علينا من جديد. لم يعد

الطبيب الشاب الذي كنت أعمل له سمساراً بحاجة لي. لماذا؟ لأن التفاهم القائم بين الأطباء لا يوجد مثله عند أي أصحاب مهنة أخرى. أعرف هذا لأنني عشته. لنقل أنك مصاب بالباسور وذهبت إلى الطبيب. لا يعمل لك العملية ويتركك. يرسلك إلى أحد أصدقائه الأطباء المختصين بالأمراض الداخلية. وهذا يرسلك إلى اختصاصي أنف وحنجرة وبلعوم من هذا إلى اختصاصي أعصاب. ما علاقتك بطبيب أعصاب؟ العلاقة يجدونها هم. لا يمكن أن يتركك طبيب قبل أن يجد عندك مرضاً آخر... إنهم لا يكذبون. حقيقة يجدون المرض. لأن الإنسان يحمل كل بذور الأمراض... وهكذا لا يبقى أي طبيب من دون مرضى. ويظهر تعاونهم في قضية أخرى. إذا سألت الطبيب سؤالاً فيشرح لك ويشرح، في النهاية يقول "أنصحك بمراجعة طبيب مختص" عندما بدأ الطبيب الشاب الذي عملت عنده سمساراً، يكتب زاوية طبية في الجريدة ازدادت شهرته. كان يجيب على تساؤل أي قارئ. لنقل إن قارئة أرسلت تسأله "ابنتي لم تأتها العادة الشهرية حتى الآن رغم أن عمرها ستة عشر سنة. ماذا أفعل؟" يعد طبيبنا الأشياء التي من الممكن عملها. في النهاية يكتب "الأفضل أن تعرضي ابنتك على طبيب مختص".

أحدهم يسأل "شعري يتساقط. ماذا أفعل؟" طبيبنا يرد "أعمل كذا وكذا ولكن من الأفضل أن تراجع طبيباً مختصاً."

كانت في تلك الجريدة زاوية القانون. يحررها محامٍ. لم أقرأ في أي كتابة له عبارة "راجعوا محامياً." لا يكتبون....

تعود الطبيب الشاب على كتابة "الأفضل مراجعة طبيب مختص" على أي سؤال من أي شخص. حتى إنهم أعطوه خطأً رسالة موجهة إلى المحرر الرياضي. القارئ يسأل "أليس في الهدف الذي دخل مرمى بشكطاش، تسلل؟" طبيبنا تعود فأجاب:

"ممكن. ولكن الأفضل أن تتعاينوا عند طبيب مختص".

هذا غير مهم. أنا لم أرَ، ولكني سمعت ممن رأوا أن رجلاً سأل طبيبنا هذا في الطريق:

- عفواً، أين المراحيض العامة؟

يعرف. بعد أن عَرَّف الرجل على مكان المراحيض العامة أضاف:

- من الأفضل لكم أن تسألوا طبيباً مختصاً...

بالرغم من أن مهنة السمسرة للأطباء تراجعت لفترة من الزمن، ولكن كنت أكسب الكثير. وكنت أصرف كل ما أكسبه على الأطباء والدواء. أعمالي تحسنت حتى إنني أصبحت أوفر. كدت أن أشتري بيتاً. ولكن لكثرة ما تجمعت الأمراض في جسمي لم أعد مريضاً بل مشفى. اختلف الأطباء مع بعضهم حول سبب موتي. البعض يقول سرطاناً، والبعض القلب. موتي بالنسبة لأحدهم بسبب نزيف داخلي، وبالنسبة للآخر ارتفاع السكر. واحد يقول سل، الثاني نزيف دماغي... اتفقوا جميعاً على أنني مت لكن لم يتفقوا على سبب موتي... بالنسبة لي الجميع على حق. ليس هناك مرض إلا ومصاب به هم يظنونني مريض، لكني - كما قلت - مشفى. عندما اختلفوا حول سبب موتي - كأنه مهم للغاية - أرسلوني إلى الطبيب الشرعي. لنرَ ماذا سيقولون هنا. انتظر هذا بكثير من الشغف.

وهكذا أيها الأصدقاء لم يبق بلاء إلا وحل عليَّ بسبب تبديل زجاجة البول. في النهاية مت وخلصت.

عندما أنهى الحديث الشاب الذي بدا مسناً لكثرة ما أصابه من أمراض نتيجة تبديل زجاجة البول أثناء الفحص الطبي الذي عمله ليصبح شرطياً سكت جميع المؤتمرين لفترة من الزمن.

ذبابة الحمار الحبيبة، حاولت أن أضع بعـض الكلمـات المضحكـة لتبديـد شبح الحزن ولكني لم أفلح.

على أمل اللقاء بك قريباً، أقبل عينيك الزرقاوين وإبرتك

حمارك الميت

الرسالة التاسعة عشرة
(الحمار الميت يحكي كيف قُبر)

ذبابة الحمار:

المكان هنا جيد، ولكن ما يضايقني عرضنا نحن الأموات، على هذا وذاك. إذا فُقد أحدهم تأتي عائلته إلى الطب الشرعي ليتأكدوا أنه لم يمت خلال حادث ما. موظفو الطب الشرعي يفتحون الباب ويقولون لمن يسأل عن ميته:

- تفضلوا، الجميع هنا، انظروا!

كاد أن يأخذني رجل هربت زوجته من البيت... الرجل تراجع عندما أعطوه اسمي. نظرت إليّ سيدة تبحث عن ابنتها الهاربة من البيت. لم أعجبها على ما يبدو فذهبت. يعني يا ذبابة الحمار الحبيبة، لم أجد سنداً لي في الحياة لأجده في الممات. لا يوجد فرقاً بين هنا وهناك.

قال شاب ذابل الوجه:

- مللت من العرض على هذا وذاك. وهل نحن في معرض يا هوه... أتوا بذي الوجه الذابل مساء البارحة. بالرغم من أن سبب موته واضح جلبوه إلى هنا لأن أمه رفعت دعوى على الأطباء بتهمة قتلهم ولدها. سيشرحوه الآن ليعرفوا فيما إذا كان الأطباء قتلوه، أم الله أم هو قاتل نفسه... أحس الشاب بآلام لا تطاق في بطنه. لم يعد يستطيع الأكل والشرب. أخذته أمه إلى المشفى. قال الطبيب المعاين أن عنده الزائدة. أجروا له الجراحة واستأصلوا زائدته، ولكن لم تهدأ الآلام عما كانت عليه، بل ازدادت. مرة أخرى المشفى نفسها، الطبيب نفسه. قال: "يجب ألا يتألم ما الذي يؤلمه يا ترى؟.." بعد قليل من التفكير "أنسينا شيء بالداخل يا ترى؟..." ... "لم يظهر لدينا أي نقص بعد العملية." ثم قال "لعلنا نسينا شاشاً وقطناً..." فتح بطن الشاب مرة أخرى. فرح الطبيب بعد أن بحث في داخله جيداً وقال "لا توجد أي مادة غريبة. لقد اشتغلنا بنظافة".

أغلقوا الجرح وأخاطوه... ألم الشاب لم يسكن، بل ازداد أكثر. بدأ الشاب يذوب مثل الشمعة. عرضوه على طبيب آخر هذه المرة. صوّره على الأشعة... جيد أن صوَّرَهُ... وجد الطبيب شيئاً يشبه إشارة الاستفهام... ما هذا؟ إنه شيء لا يشبه أياً من أعضاء الجسم. لا يمكن معرفته إلا بإجراء جراحة... الأطباء ينظرون في الصورة ويتناقشون. أعطوا قراراً بأن ذلك الشيء الغريب والذي لا يشبه أي عضو من أعضاء الجسم لا يمكن معرفته إلا بإجراء جراحة... شقوا بطن الشاب مرة أخرى...

ذبابة الحمار، هذا بطن إنسان ليس بطيخة. لو كان البطن كل يوم والثاني، شق، شق وافتح. كان جنابه تعالى خلَقَهُ لنا بسحَّاب، فتحوا بطن الشاب، وجدوا أن الشيء الذي شبهوه بإشارة الاستفهام مقص. نُسي من العملية السابقة، التي أجريت له في المرة الثانية. ولمعرفة فيما إذا كان قد نسي شيء ما في الداخل. نبَّه الجراح من كان معه في العملية قائلاً: "ديروا بالكم لا تنسوا شيئاً في الداخل" بَحَثَ وفتش من كان في غرفة العمليات، وتأكدوا من أنهم لم ينسوا شيئاً. ثم أغلقوا الجرح. لكن الألم لم يهدأ... الشاب، انتهى... أطباء آخرون ومشفى آخر هذه المرة... وهل من السهل الذهاب إلى مشفى آخر والمعاينة عند أطباء آخرين؟ بين العملية والأخرى شهران، ثلاثة، لأن الأم أرملة تعيش من راتبها التقاعدي. ليست غنية إلى حد استطاعتها أخذه إلى الطبيب الذي تريد... عندما علم الطبيب الأخير أنه أجري للشاب ثلاث عمليات زائدة، قال إن العملية قد أُجريت له خطأ وأن الآلام بسبب عقد المصران. أي. ماذا سنفعل؟ عملية... مدده تحت العملية... الجراح خبير لا ينسى شيئاً داخل المريض، ولا شيء من داخل المريض خارجه. أوشك الشاب على الشفاء من الآلام، ولكن أصبح جلده أصفر... ذوى، وذوى.. هذه المرة لم ينسوا بداخله شيئاً ولكنه تلوث بمكروب... توسلوا للطبيب "دخيلكم يا دكتور" قال الطبيب

بعد قلب شفاهه "غير مهم سنأخذ لـه المـرارة" تلخبطـت الأم وظنـت أن المـرارة تؤخذ من عند القصاب، قالت "دقيقة سأذهب وأحضرها لك."

سُر الشاب لأنه قال لنفسه "لم يبق شيء في داخلي، ليـأخذوا المرارة فـلا يبقى ما يؤلمني" خدروا الشاب ومـددوه تحـت السـكين. قطع التيـار الكهربـائي وسط العملية. مع أن الإذاعـة تعطـي خـبراً "مـن السـاعة الفلانيـة حتـى السـاعة الفلانية سيقطع التيار الكهربائي" وهل يقطـع التيـار الكهربـائي خـارج التقنـين؟ هذا ليس قطع عادي من البرنامج. مـاذا؟ عطـل فـي... الجـراح يصـرخ "شـغلوا المولد يا هوه..." المولد لا يشتغل بواسطة الهـواء. يحتـاج بنزينـاً، أيـن البـنزين؟ لا يوجـد ولا نقطـة بـنزين في أي مكـان مـن أسـبوعين. أشـعلوا مصباحـاً، شمعـة، قداحة... إذا ما وجدتم، كبريت كافٍ. سـيرجع طبيـب الأحشـاء الداخلـي الـتي أخرجها إلى مكانها، ثم يُغلق الشق... لا كهرباء ولا مولد ولا أي ضوء.. غرفـة العمليات مظلمة. الجراح أمسك إحدى الممرضات على أنها المريض... النتيجـة. الشاب أعطاكم عمره... أمه قدمت استدعاء إلى المحكمة تتهم الأطباء بقتل ابنها. ولكي يُعرف من الذي قتل ابنها، أحضروه إلى الطب الشرعي.

قال أحد الأموات:

- المرأة المسكينة اشتكت على جهة غلط. قاتلو ابنها، إدارة الكهرباء. إذا لم يكن هناك كهرباء، أي خَرا سيأكل الجراح.

قال ميت آخر:

- يا أخي إذا كان لا يوجد بنزين ماذا ستفعل إدارة الكهرباء.

قال ميت ختيار:

- يومان وأنا أسمع أسباب موتكم... وأسوأ ميتة ميتتي أنا...

سألناه:

- لماذا؟

هكذا حكى:

- كنت سليماً تماماً، أصر ابني الكبير على عرضي على الأطباء ومعـاينتي. يا ابني أنا لست مريضاً حتى أعرض على طبيب... الإنسان الحضاري يذهب إلى الطبيب كل سنة مرة على الأقل ويعاين من رأسه حتى قدميه. أيذهـب الإنسـان إلى الطبيب دون سبب؟ ليس عندي أيّ ألم. ماذا سأقول للطبيب أصر الولـد... هكذا يفعـل النـاس المتحضـرون. أخذونـي إلى معاينـة مـن تلـك الـتي يسـمونها "Check Up"، أي من الرأس إلى القدم. صور أشعة، تحليل دم، تحليل بـول، وأيُّ أشياء... والذي يقوم بهذه الأعمال صديق لوالدي متخـرج مـن أمريكـا. عندمـا نظر إلى تخطيط القلب، سأل الطبيب: "متـى مـات؟" قـال ولـدي: "مـن؟" قـال الطبيـب: "صـاحب هـذا التخطيـط." وقـال: "مسـتحيل. ثـلاث نوبـات قلبيـة شديدة... لا يمكن أن يعيش." أخذني مرة أخرى إلى معاينة القلب. النتيجة أسوأ هذه المرة. بينما أنا سليم تماماً، انبهرت لقول الطبيب: "يجب أن يكون ميتاً. لقد أصيب بثلاث نوبات قلبية..." يعني أصبـت بثـلاث نوبـات قلبيـة دون علمـي... تمدَّد على السرير. لم أعـد أستطيع الحركـة، لـولا أن قـالوا أنـني أصبـت بثـلاث نوبات قلبية، لعشت سليماً تماماً... سيطر عليَّ خوف لا مثيـل لـه.. عـرض ابـني التخطيط على طبيب آخر، الطبيب هذا محلي. يعني لم يرَ لا أمريكا ولا أوربـا... عندما قال ولدي أنني أصبت بثلاث نوبات قلبية، بدأ يضحك مقهقهاً. ثم شرح له قائلاً: "الأطباء الدارسـون في أمريكـا أو في أوربـا لا يفهمـون تخطيـط القلـب المعمول هنا. لماذا لا يفهمون؟ لأن قـوة التيـار الكهربـائي، عندنـا تصعـد وتـنزل بشكل مستمر والآلة تتأثر بارتفاع وانخفاض قـوة التيـار... لم يعملـوا هـذه الآلـة لبلدنا، بل عملوها للبلدان التي فيها قوة تيار طبيعية. فلهذا كان يضحك الطبيب المحلي. ترسم إبرة الآلة خط مرتفع مع ارتفاع التيـار وتـنزل إلى مستوى مخفـض عندما تنزل... جاء ولدي وحكى لي "بابا، البشارة، لم تصـب بـأي نوبـة قلبيـة،

الخطوط التي في الورقـة، ليسـت نبضـات قلبـك، بـل لانخفـاض وارتفـاع التيـار الكهربائي..." ولكني لم أعد أستطيع الحركة... نعم مت لهذه الوساخة... لولا أن عملت "Check Up" لعشت كثيراً.

في براد المشرحة فتاة جميلة. بنـى الثلـج علـى رموشـها الطويلـة وشـعرها سألتها:

- لماذا مُتِ؟

بدأت الحديث قائلة:

- حياتي رواية.

لا أكتبها لأنها ليست غريبة. مثل تلك الجرائم التي يكتب عنها يومياً في الجرائد، كما حالة الطقس وأسعار الذهب.

سألَتْ الفتاة:

- هل بقي جمالي يا ترى؟

قلتُ:

- محظوظة. كل السكاكين التي طعنتك في مكان العورة. (المـايوه) يسـتر كل أمكنة الطعنات لو لم تكن ميتة.

بينما كنت أتحدث مع الفتاة أتى عمال المشرحة وأخذوني ومددوني على طاولة التشريح كان ثمة موتى آخرين علـى الطاولـة العريضـة. يعـني أتـى دوري لتشريحي ومعرفة سبب موتي، بعد أن حضّروني للتشريح خرجوا ذاهبين.

قال لي أحد المحضَّرين للتشريح:

- ذاك الرجل أنتم. عرفتكم من صورتكم في الجريدة.

سألته:

- أي رجل؟

أروني بعض الجرائد المتروكة في المشرحة، وقرأوا لي بعض عناوين أخبار الموتى: "فقيد لا يملأ مكانه" "فقدنا أكبر محتالينا".

المكتوب حول موتي لا يحكي عني، بل عن الكتاب أنفسهم: لقد كتبوا خواطر لم أذكرها أبداً. لم أذكر لا الخواطر ولا الكتاب.

كنت ألتقي بعضهم في حياتي فيحسبون أن عليهم أن يتظارفوا، فيحكون لأنفسهم بعض المياعات على أنها ظرافة، وينفجرون ضاحكين مما يُجبر الآخرين على إظهار أسنانهم مجاملة. هؤلاء الكتاب أصروا حتى بعد موتي على عمل ظرافة كهذه.

بعض المقالات عن موتي بحثت في كتاباتي بشكل علمي. أحدهم يقول "أليس في الدنيا أي شيء جميل، جيد، صحيح.. لم يكتب عن أي واحدة من هذه. بسبب نظرته المضطربة. كان لا يرى ولا يكتب إلا عن السفالة، الفوضى، القرف، الرذالة.

ذبابة الحمار الحبيبة، هذا أنا مت، أنت مكاني في الدنيا. أنت تعرفين حق المعرفة ومن أين تغرزين إبرتك.

شفتاي جافتان كوريقات الورد التي جفت بين صفحات كتاب. وفي عيني الميتتين دمعتان متجمدتان... قولي لكل من يعرفني، أنني مت. لن يخاف أحد بعد اليوم من مصافحتي. سوف لا يتحمل أحد أصدقائي مشقة العبور الآخر لكي لا يضطر للسلام عليّ. سوف لا يخجل أحد من أن يدير رأسه لكي يُمثل عدم رؤيتي. الموت خلصهم مني وخلصني منهم.

سوف لا يجد أصدقائي أو أعدائي فرصة للبدء في الحديث. وكان جيداً، ظريفاً ولكن..." لِيُشهِّروا بي وليتهربوا من مساوئ أنفسهم كما في السابق. سوف يقولون "كان جيداً، ظريفاً......" ثم يبلعون الكلمات لأنني مت وأخذت معي كل مساوئي.

سمعنا صوت أقدام. فُتح الباب. أتى المشرحون. أضيء المصباح ذي النور اللامع. وجوه المشرحين مغطاة لا يظهر منها إلا أعينهم.

أراد شاب أن يحرف رأسي بشكل مناسب للتشريح ولكن رقبتي كما جسمي، متجمدة. فلم يُدر معه. قال:

- ناشف الرأس حتى بعد موته.

كثيرون قالوا في حياتي "يجب أن يكسر رأسه." هنا يفعلونها.

سأل الشاب:

- ما هذا، أستاذ؟

قال الشخص المسؤول:

- هذا الذي يسمونه مخ. المخ عضو عديم النفع أكثر من اللوزتين، الزائدة، أو حتى أضراس العقل ولعدم وجود إمكانية استئصاله، ورميه، يجب تخديره لكي يعيش الإنسان سعيداً.

لم يصدف أن جلب هذا الانتفاخ الذي في داخل الجمجمة المسمى عقل إلى صاحبه إلا البلاء. على كل حال ستفهمون بشكل أوضح، لماذا لم يخلص المرحوم من البلاء.

وهكذا انتهى ذاك العمل يا ذبابة الحمار...

بالطبع لم يقم حفل جنائزي للحمار الميت الذي لا يخاف حتى من الذئب. بينما كان ينتظر في المقبرة ليرمى في حفرة ويستر بالتراب. حدث ما لم يكن بالحسبان. جلبوني إلى المقبرة بواسطة سيارة. ووضعوني بجانب حفرة. بدأ الشخص الذي يبدو إما لحاداً أو حارساً للمقبرة بالصراخ:

"تعالوا ولاه.. لا تقّطعوا الوقت.. تعالوا ولاه، لندفن هذا..." ولكن ليس من يهتم لكلامه فجأة أتت مجموعة كبيرة من السيارات تسير خلف بعضها، خمسون، مئة وخمسون سيارة أو أكثر، والأكاليل... كان هناك شاحنة أكاليل...

غير الأكاليل الموجودة في السيارات. طوقني الزحام. وضعوا الأكاليل التي أنزلوها من الشاحنة.. ومن السيارات الأخرى حولي حتى أصبحت مثل تلة من الزهور. سأدهش لو لم أكن ميتاً. لكن الأموات لا يدهشون لشيء. كل هذا أنا محبوب!!.." أتى الرجال الذين ناداهم اللحاد عندما صرخ "تعالوا ولاه لندفن هذا..." بعد رؤيتهم للزحام بدأوا يقرؤون الأدعية بصوت عال، حتى أن بينهم من بكى. وبعضهم كان ذا لفّة. كان الزحام حولي يتزايد.

قال أحد المزدحمين وهو يُشهشه بالبكاء:

- وهل أنت من الرجال الذين يموتون؟

لم أعرف قائل هذا الكلام.

قال آخر:

- لقد ترك لنا إرثاً كبيراً.

قطع المُشهشه بكاءه قائلاً:

- لا ياه، واخ، أماه. من غير الممكن معرفة صاحب النقود أو الإيمان.

قفز أحد المزدحمين إلى أعلى كومة تراب بجانب القبر وألقى رثاءً. بحث في الخدمة الوطنية الكبيرة التي قدَّمتُها، بتأسيس أول معمل للعلكة. وبالتالي انخفاض نسبة واردات العلكة عشرة بالمئة وبمقدار الملايين من القطع الأجنبي التي وفرها للبلد... الله الله... كوني من محبي عمل الخير أنشأت جامعاً وأخذني الموت قبل أن أكسِّب الوطن الجامع الثاني.

حين قال:

- سيعيش أخونا المبجل السيد جعفر ابن هذا الوطن الذي يفارقنا الآن جسداً، إلى الأبد في قلوبنا.

بدأ أحدهم بالصراخ:

- وقفوا، قفوا!...

الميتون لا يخافون، ولكن تعودت على الخوف في حياتي بشكل حتى إنني خفت أن يكون قد تبعني موظف الحجز. لم أستطع التفكير بسرعة. ما الذي سيأخذه موظف الحجز؟

غاص الرجل الذي يصرخ "قفوا، قفوا" إلى وسط الزحام.

- السيد جعفر هناك... لمن تقدمون هذا النعي؟ لا يوجد مخلوق غير اللحاد محمود ليضع السيد جعفر في القبر...

قال أحدهم:

- كم كنتم تتكلمون بشكل مثير يا سيدي؟...

قال آخر:

- يا حرام، بكينا موتها...

قال الخطيب:

- جيد، لكن لا أستطيع قول نفس العبارات بنفس الهيجان. مرة أخرى فوق قبر السيد جعفر.

قال أحدهم:

- لا مانع يا سيدي، لا تحزنون، يتكلم واحد آخر...

كل واحد يأخذ إكليلاً ويركض نحو قبر السيد جعفر الأكاليل الثقيلة، يسحبها شخصان، ثلاثة لم يبق من الأكاليل ولا ورقة، شتمني المقرؤون، العجزة، الشحاذون، النواحون والذين كانوا يدعون قبل قليل، بملء فمهم وتراكضوا نحو قبر صاحب المصانع. كنت أظن أنه لم يبق أحد بجانبي، ماذا أرى، أليس بجانبي، صاحب المجلة التي كنت أكتب فيها لا أستطيع وصف فرحتي. كم كنت أزعل من الرجل في حياتي. خجلت من نفسي. ترك أعماله الكثيرة وجاء إلى الجنازة. هذا يعني أنه يحبني.

قال مديري لنفسه:

- أنا أيضاً وثقت بكلامه ظناً مني أنه رحل، وأعطيته سلفة. مـات حتـى قبل أن ينجز مقالة. هذا العدد... واأسفاه...

توجه إلى قبر صاحب مصنع العلكة

ذبابة الحمار الحبيبة. خذي هـذه الرسـائل إلى صـاحب المجلـة الـتي كنـت أعمل بها لينشرها إذا أعجبته وبالتالي أدفع سلفتي.

وضعوني في الحفرة. وردموا التراب فوقي.

لأنه لا يوجد عندي من يترحَّم عليّ، قلت لنفسي:

- هيه، الله يرحمك.... الحمد لله.

أوووووه

مع محبتي

حمار ميت

الرسالة العشرون

حكاية المرأة الغنية التي ذهب ضحية بشكل لم يكتب في أية رواية (بوليسية)

ذبابتي الحبيبة:

أنا لم أحس بوحشة أي مكان في الحياة. أتمدد وأنام في المكان الذي أشعر فيه بالنعاس، البيت، الطريق، المنفى، السجن، الفندق، الهضبة، الوادي، الجبل، الحقل.... كنت أكتب في أي مكان وتحت أي ظرف كان، المقهى، البيت، على الطاولة، على الأرض، في السرير، على ركبتي.

أتعلمين أنني أغار من بعض الذين لديهم حق استغراب مكانهم. لوحشة المكان بالنسبة لهم سعادة من نوع مختلف. ليس من حق من لا مكان لهم أن يستوحشوا أو يستغربوا مكانهم. أكثر ما كان يخرجني عن طوري أولئك المدللون من الناس الذين حتى إذا ناموا في أكثر الأمكنة فخامة، ويستطيعون أن يستيقظوا مع الظهر ويتمطمطون ويتثاءبون ، قائلين "لم أستطع النوم طوال الليل، استوحشت مكاني." أغار من هؤلاء كثيراً. لم أستطع تحقيق رغبتي الداخلية هذه ولا مرة. هيه، ذبابة الحمار، قولي أية رغبة استطعنا تحقيقها.

لم أستوحش قبري. كنا نردد أنشودة دينية حينما كنا في المدرسة نقول "تحتي تراب، فوقي شجر.". تحتي تراب رطب كأنه فراش لين، وما فوقي من تراب، ولكنه كلحاف سميك. المكان المتمدد فيه جيد، ولكن ثمة شيء قاسٍ من الخلف. عندما تحركت لأرتاح، أتاني صوت خشن من تحتي:

- لا تلعب!

لو لم أكن ميتاً لخفت من الصوت، لكن الأموات لا يخافون.

ذبابة الحمار الحبيبة، أنا الآن أحس بما تقولينه "الأموات لا يبكون، لا يصرخون، لا يأكلون، لا يشربون، لا يتكلمون، لا ينامون، يعني مثل الجنود المناوبين." لا تُعدّين غير محقة...

كان الصوت الخشن القادم من تحتي يأتي من ميت آخر. سألته:

- ما عملكم تحتي؟

قال:

- أنا لم آتِ وأدخل تحتك. أنت الذي فوقي.

قلت:

- أنا لم آتِ لوحدي. أتوا بي ودفنوني.

- لكنهم دفنوني هنا قبل يومين، فالمكان من حقي.

- لو كنت طالبت بحقك عندما دفنوك...

- هيه... وهل يستطيع الأموات المطالبة بحقوقهم؟ أو هل استطعنا المطالبة بحقوقنا في حياتنا لنطالب بعد موتنا.

- على ما يبدو أنكم مثلي. أي ممن مات دون أن يحيا.

- وهل كانوا يرموننا ثلاثتنا في حفرة واحدة، كما يرمون الخيار في (قطرميز) المخلل.

قلت صارخاً:

- ماذا ثلاثتنا؟ من الثالث؟

- المرأة التي تحتي، دفنوها قبلي بيوم.

- ما هذا المكان؟ لا فرق بينه وبين مكاننا في حياتنا. أيمكن أن يدفن الناس فوق بعضهم، مثل (الباصات) التي تذهب إلى المناطق الشعبية.

قال الرجل الذي تحتي:

- أنا متعود. كنا نعيش الطريقة نفسها في الكوخ...

- أليس هناك راحة حتى بعد الموت؟ أرجوكم، شدوا مالكم هـذا تحـتي، يدكم، رحلكم، لا أدري... لا أشعر بالراحة.

- واخ يا سـيدي، واخ... إن كنـت مهتماً براحتـك كـل هـذا، فـاعمل لنفسك قبراً خاصاً.

- لماذا رمونا كلنا في حفرة قبر واحدة مثل السمك.

- المكـان، أيـن المكـان...؟ حتـى القبـور الخاصـة أصبحـت في السـوق السوداء. أين نحـن منهـا. لا تستطيع شـراء قـبر حتـى... ماشـي، لكـن القبـور. والمهربون يبيعون القبور لأكثر من ثلاثة أربعة أشخاص بـآن واحـد. أتعـرف مـا حدث البارحة. قبر رجـل زوجتـه في مقـبرة العائلـة وحجـز لنفسـه. مكـان قـبر بجانبها... بعد فترة مات الرجل. البارحة دفنوه... يا لطيف، يا لطيف، على تلـك الخناقة...

سألته:

- خناقة ماذا؟

قال:

- خناقة الغـيرة. وجـد في حضـن زوجتـه الـتي أحبهـا وسـكب الدمـوع لفراقها، رجلاً غريباً.

صاح بزوجته "من هذا؟" قالت الزوجـة "لا أعـرف." بـدأ معهـا الخنـاق قائلاً "ماذا يعني هذا؟... هـل أصبحـت تـأخذين إلى حضنـك حتـى الأشـخاص الذين لا تعرفينهم وهل تغيرت عـاداتك بعـد موتـك..." لقـد بـاعوا القـبر الـذي اشتراه لزوجته، لشخص آخر. وهكذا دخل هذا الغريب حضن المرأة.

قلت:

- كنت أظن أن الإنسان بعد موته لا يبقى عنده فرق بين غنيّ وفقير.

قال:

- لا يبقى فعلاً، ولكن ليس الآن. عندما يفنى تماماً. كنا أشقياء في الدنيا على الفاضي. ننتظر الراحة في الآخرة.

رجوته مرة أخرى:

- لطفاً... اسحبوا شيئكم هذا من تحتي.

قال:

- من أين أتيت يا سبعي؟ من (الفيلا) أم القصر. ليس ثمة ما يدخل فيَّ ولا يدخل فيك.

هكذا عشت في الحياة. أنا معتاد، كنا نعيش سبعة أشخاص في غرفة صغيرة من كوخ. لا أحد يعرف أين يدخل حتى إننا كنا لا نميز.. نحن هنا ثلاثة ولسنا سبعة.

قلت:

- ولكن تحتك أنثى.

قال:

- وهل بقي من أنوثتها شيء؟

زعلت المرأة التي تحته من هذا الكلام وقالت:

- تأدبوا قليلاً.

تفقدت الشيء وجدت أنه لا ذنب للرجل. كان رأساً حاداً لبروز صخرة. ولا أستطيع سحبها أو التحرك إلى مكان آخر. يعني كيف عشت على الخازوق في حياتي، هكذا سأقضي مماتي.

قالت المرأة في الأسفل:

- الله لا يُري لأحد ما رأيناه...

قال الرجل:

لا ااه... ستحكي من حديد. عندما مت فرحت، لأنني سأتخلص من ثرثرة زوجتي، فعلقت بهذه. خمس مرات استمعت لحكايتها منذ موتي.

قالت:

- لكن هذا السيد أتى الآن. لعله يريد أن يستمع. ما لكم أنتم. لا تستمعوا.

- كانت - حسب قولها - غنية جداً. سبب غناها، زيجاتها، زيجات عقلانية. بعض أزواجها ماتوا فتركوا لها ميراثاً ضخماً. كانت تأخذ مبلغاً ضخماً لتقبل الطلاق من أزواجها الذين لم يموتوا أو لم تستطع قتلهم. هكذا أصبحت واحدة من النساء الغنيات في الدولة.

لماذا لا تدفن امرأة بهذا الغنى في قبر عليه الهيبة. وترمى مثلنا نحن المحرومين في حفرة، من قبل البلدية.

حسب ما فهمته ومن وجهة نظري، وبناءً على ما حكته المرأة التي تبدو من خلال صوتها المرتجف أنها مسنة. مسنة لكنها شابة القلب... متعلقة بالشباب أموالها لا تنتهي. بدأت تستعمل الشباب الحلوين، الأقوياء، الفقراء. تعلق بها أحد هؤلاء الشباب، لا يعد شاباً بل في الأربعينات من عمره. لم تصدق في البداية مظاهر التعلق بها. حيث عركت الحياة جيداً. ولكنها تراخت عندما شعرت بتعلقه بها... تزوجا. المرأة سعيدة، سعيدة.

سعيدة بشكل... لم تعش سعادة كهذه.. في أية زيجة من زيجاتها. المرأة تحب (الكاتو) و (الشيكولا) كثيراً. كان يأتي زوجها، الذي يصغرها بأربع وثلاثين سنة كل يوم محملاً بصناديق (الكاتو) و (الشيكولا) والمرأة تأكلها. الرجل يوصي على كل هذه الأشياء خصيصاً لزوجته... ولكن أي (كاتو). لقد أصبحت المرأة بعد مدة لا تستطيع الخروج من بيتها لسوء حالتها. لم يستطع الأطباء والدواء إنقاذ المسكينة. تقول "والله لم أعد أجد وقتاً للجماع. حتى أنني

لم أعد أستطيع النوم. كل عشر – خمس عشرة دقيقــة، إلى المرحـاض. ذبلـت لم يبق لي حيلٍ. انتهيت. كان زوجي يحبني حتى في حالتي هـذه. وكـان يـأتي كـل مساء حاملاً (الكاتو) ويقبلني... ولكن، لم يعد يبقى لي وقت للجماع بـل حتـى للعناق. كنت ألحّق نفسي إلى المرحاض بصعوبة، وكنــت لا ألحّق أحيانـاً... آه، أي كاتو. كان حبيبي يوصي عليه مخصوصاً. أصبحت طريحة الفراش. بعد فـترة، لم أعد أستطيع الوصول إلى المرحاض.

فهمتم وضعي أليس كذلك. من فوق ومــن تحـت. لم يـتركني حبيبي ولا ثانية. وهل يصمد الإنسان أمام كل هذا الإسهال، خاصة إذا كان بعمري؟ كان زوجي لا يفارقني. يقدم لي قطع الكاتو بيده قائلاً "يا الله يا حبيبتي، لقد ضعفت كثيراً. لقد أوصيت عليه خصيصاً من أجلك." هكذا كانت حكاية المرأة. لم يُـرَ حب كهذا في التاريخ. ثم ماتت المرأة. ولم تفهم حقيقة ما حدث إلا من خـلال حديث زوجها مع عشيقته بجانب جثتها. كـان الـزوج يضـع المُسـهل في داخـل (الكاتو) و (الشيكولا) التي يوصي عليها. المسكينة كلمـا أكلـت المزيـد، كـانت تسهل أكثر. في النهاية "انتقلــت المـرأة الصالحـة مـن دار الفنـاء إلى دار البقـاء." وكونها سجلت كل ما لديها لزوجها بقيت دون أية نقــود... الرجـل سـافل إلى حد لم يشتر قبراً، أو يعمل جنازة لزوجته المليارديرة، التي قتلهـا بطريقـة لا تخطـر على بال أي من كتاب روايات الإجرام أو (البوليسـية). البلديـة، دفنـت المـرأة، ولكن المرأة مسرورة تقول "أووف، الحمد لله. مت وخلصت من الإسهال... لم أجـد حتـى دقيقتـين للجمـاع مـع زوجـي. كنـت ألحّق نفســي إلى المرحــاض بصعوبة.... أيام...

ذبابة الحمار الحبيبة، أنـا بغايـة الشـوق إليـك. لعلـك تزعجـين مـن هـذا الكلام. ومن التمني الذي كتبته في رسائلي السابقة. "اللقاء القريب" من يريد أن يلتقي بميت، وقريباً؟.. من يشتاق لميت؟ سوف لن نلتقي لا قريباً ولا بعيداً.

تأملي من أحلي، المياه ذات اللون الأخضر المزرق لاتساخها عند أعمدة جسر (غلاطة) على الخليج. مري في الطريق المؤدي إلى ساحة (امينونو) من جانب سور (الجامع الجديد) وتذكريني. لم أكن أشعر بما يسمى الحرية إلا تحت ذاك السور. كان المكان بارداً في أحر أيام الصيف، فكنت أفتح صدري أمام تيار الهواء لأظن نفسي حراً. لم أكن أعرف أنني عندما أقف عند سور الجامع الجديد وأفتح صدري للريح الباردة، وأحسها تلامس صدري "الشيء الذي يسمى حرية لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك". مع نهاية رسالتي أهدي إبرتك التي تغرزينها في أجسام الأغنياء أجمل القبلات، يا ذبابة الحمار الحبيبة.

صديقك

حمار ميت

الرسالة الحادية والعشرون

(حكاية نقاش الأموات الحاد حول تحديد النسل)

أختي ذبابة الحمار:

حدثت أشياء غريبة هنا في القبر. كانت ثمة أصوات أقدام فوق التراب لا بد أن بعضهم يتجول فوق رؤوسنا. قال الرجل الذي تحتي كونه دفن قبلي:

- صار الوقت ليلاً.

قلت:

- كيف تفهم الوقت، نهاره وليله تحت التراب؟

قال:

- لا تستطيعون سرقة شواهد القبور في النهار ياه..

هذه الأصوات. أصوات وقع أقدام لصوص شواهد القبور. يبيعونها لحجاري الشواهد. وهم يعدلونها حسب الطلب. ليبيعوها لآخرين. بعض حجارة القبور بيعت لثلاثة أربعة أشخاص. يسرقون حتى الأكاليل الموضوعة على القبور الخاصة. ولأن أعواد زهور الأكاليل قصيرة فلا تجد سوقاً جيداً. سألته:

- أين حارس المقبرة؟

قال:

- موجود. يعملون اتفاقية بينهم وبينه فلا يتركون مجالاً لنشوب الخلاف...

يقال أيضاً إن هناك مــن يفتـح القبـور لسـرقة أسـنان الموتـى الذهــب، أو البلاتين. ولكن لم أشهد حادثة من هذا النوع. منذ قدومي حتى الآن. أي خلال أربعة أيام. كانت المرأة الميتة من وضع المسهل في (الكاتو) تحكي دون توقف.

سألت الرجل الذي تحتي:

- هل أصبح الصباح؟

قال:

- .بماذا يهمك الصباح من المساء.

ثم أضاف:

- نحن هنا خارج الزمن.

حدثت ضجة فوق رأسي. قال الرجل الخارج من الزمن:

- الوقت ليس صبحاً، نحن على وشك الظهر.

إنهم يحفرون فوقنا ياه... سيدفنون في هذه الحفرة فقيراً آخر مثلنا. حـدث هذا بالفعل. لم يحفروا التراب بعمـق. وضعـوا ميتـاً مسـناً جـداً. بعـد أن أزاحـوا التراب قليلاً، بقدر ما يتسع لميت. يفهم من الأصوات التي تـأتي مـن فـوق أنهـم شخصان. وعلى الأكثر ثلاثة. رَشّوا فوقه التراب كما يُـرش الملـح علـى الخيـار. حسب اعتقادهم أنهم أغلقوا القـبر، بعدهـا بـدأ ذاك الصمـت المطبـق في منطقـة خارج الزمن تلك:

الصمت لا يقطع أبداً كلام الأموات. لهذا قال الميـت الـذي تحـتي للميـت المدفون حديثاً:

- ما هو سبب موتكم؟

لم أقصد بهذا القول أنه خوف صمت القبر.

نعم، سأل الميت الذي تحتي الميت الذي فوقـي عـن سـبب موتـه. وهكـذا شرح الميت الجديد:

لم أعرف سبب موتي حين مت. ولكن عرفت من خلال نقاش الأطباء فوق رأسي بعد موتي.

قالوا إنه لا يمكن إجراء جراحة للمريض الذي أخذ (كورتيزون) قبل إخراجه. نسي الطبيب الذي أجرى لي العملية قراءة تقرير المعاينة الذي أعطوني إياه في المشفى. لا يعرف أنني أخذت (كورتيزوناً) مع أنه مكتوب في التقرير. وعلى قول الأطباء أن الجراح أجرى لي عملية ناجحة جداً. حتى زملاءه الأطباء هنأوه. إذا كان على نجاح العملية، نجحت. ولكن مع الأسف الطبيب لا يعرف أنني أخذت كورتيزوناً، فلهذا مت، طبيعي لم يمنع نجاح العملية موتي. صحيح أن الموت كان نهاية العملية الناجحة. ولكن لم تكن العملية هي السبب لهذا الموت. السبب هو أخذي (كورتيزوناً).

لأنني لم أفهم شيئاً من هذا، سألته:

- وماذا يعني هذا؟

- هذا يعني أن الأطباء الذين عاينوا جثتي قالوا إن العملية ناجحة جداً، وبالتالي، أثبتوا أن الطبيب الذي أجرى الجراحة غير مسؤول عن موتي. أحد الأطباء الذين فوق رأسي قال إن الطبيب مجبر على قراءة التقرير، ولو قرأه لعرف أنني أخذت (كورتيزوناً) وكان سيؤجل العملية حتى يُخرج (الكورتيزون). قال الطبيب الآخر:

سيدي، هذا الرجل " كان يشير بإصبعه إليّ" في السادسة والسبعين من عمره، ما شاء الله عاش ما استطاع. يعني لو لم يكن أخذ كورتيزون ونجحت العملية، و لم يمت فوراً، كم سيبقى حتى يموت (ما هيك) ممكن أن يموت قبل العملية (ما هيك؟).

استعمل التركيب في النص الأصلي بالعامية كما الكثير من كلمات النص لذلك أوردها بالعامية العربية

عاد صمت الموت عندما سكت الرجل. ثم سأل المقبور الجديد:

- كم ميتاً نحن في الحفرة؟

قلت:

- نحن بما فيهم أنتم، ثلاثة رجال وامرأة. يعني أربعة.

قال الميت الذي تحتي:

- هذا الذي نعرفه، حيث لا نعرف ما تحت المرأة الميتة.

قال الميت الذي فوقي:

- اترك ما تحت الأرض. إذا لم يُطبَّق تحديد النسل، سوف لن يبقى مكان للناس حتى فوق التراب.

بعدها قدم حديثاً طويلاً حول فوائد تحديد النسل.

الحقائق واضحة بالأرقام. لو كان في تركيا بدلاً من الأربعين مليوناً عشرون فقط، من الطبيعي أنه سوف لا يبقى فقراء. لأن أكل الأربعين مليون من بيض ولحم وحليب وحبوب سيأكلها عشرون مليون فقط لما بقي بطالة. ولو كان في تركيا بدلاً من العشرة ملايين خمسة ملايين فقط لزالت أزمة السكن، وأصبح عند كل شخص بيتان أو ثلاثة.

عصَّب الميت الذي فوقي عندما بدأ الميت الذي تحتي بالضحك. وصاح به:

- لماذا تضحك؟

قال الذي في الأسفل:

- أنتم على حق. الحساب واضح. لو كان يعيش في تركيا بدلاً من الخمسة ملايين مليونان فقط، لعم الرخاء... ولكن أليست كذلك دولتنا. مهما كان، لا يوجد في بلدنا أكثر من مليونين يعيشون مثل البشر.

قال الذي فوقي بصوت عالٍ:

أربعون مليوناً...

- نعم. أربعون مليوناً، الثماني والثلاثون الذين لا يعيشون والميتــون دون أن يعيشوا، يعملون لكي يعيش المليونان أو قل الخمسة ملايين مثل البشر.

- ما الذي تعنونه؟

أحسست أنه علي أن أدخل الحديث:

- لا تخيفوا الناس على الفاضي... هذا نحن كلنا متنا... ليس هناك ما بعد الموت...

الحمار الميت لا يخاف من الذئب.

قال الرجل الذي تحتي:

- هذا الذي يسمونه تحديد النسل أوجده أولئك الذوات ليلهوا به النــاس وليعيشوا بشكل أفضل.

قال الذي فوقي:

- وماذا يعني هذا؟

وضّح الذي تحتي:

- الأمل في المستقبل، أي في الأجيال القادمــة... عمـل الجيـل المـاضي مـا عمله... يجب تنشئة الجيل الجديد بشكل، يفتح فيه عينيه على ما حوله، وبالتــالي يظهر العظماء من الجيل. يعني إذاً تحدَّد النسل، تحدد الجيل القادم. هذا يؤدي إلى قلة احتمال ظهــور العظمـاء بينهـم. الســن الأكـثر عطـاءً وإبداعـاً سـن مـا بـين العشرين والخمسين. الناس عندنا غالباً ما يصبحون بعد سن الخمسين عالة علـى غيرهم. الذوات يعيشـون حتى الستين والسبعين بل وحتى الثمانين. وهم يمتصون دم الجيل الجديد. ويطالبون بتحديد النسل ليحمِّلـوا هـذا الجيـل عبئـاً أكـبر. لمـاذا يطالبون بتحديد النسل، لمـاذا؟ لكـي يبقـوا مسـيطرين. دنيانـا يديرهـا الـذوات. انظر، انهم على رأس أي نظام في الدنيا. يريـد هـؤلاء الأوغـاد أن يعيشـوا أكـثر حتى لا يبقى في أجسادهم إلا الكلس الذي لا ينفع حتـى الطبيعـة. تكلّـس كـل

مكان في الذوات حتى عقولهم... بخلاء لا يفعلون ما يفيد أحداً ولا يموتون حتى يتكلسوا جيداً لكي لا تستفيد منهم الأرض كسماد.

قال الذي فوقي بصوت فيه شيء من الزعل:

- ما الذي تريدونه؟ أنتكاثر. نتكاثر.

قطع الذي في الأسفل حديث الذي في الأعلى سائلاً:

- ما هو أكبر مورد لتركيا من العملة الصعبة. سكت قليلاً ثم أجاب نفسه.

- أمن القطن؟ التبغ؟ البندق؟ النحاس؟ لا ليس من أي منها. من أين؟ من الإنسان، أرسلنا عمالاً إلى الخارج. ونحن نقف اليوم على أرجلنا بفضل ما يرسلونه من عملة صعبة... هذا يعني أن الإنسان ضروري لنا. كان يزيد غضبه كلما استمر.

- اليوم، كلمتنا في هذه الدنيا تسمع قليلاً لأننا أربعون مليوناً. لو كنا عشرة ملايين من سيرد علينا.

قال العجوز الذي في الأعلى:

- لو كان تكاثرنا جيداً لدعمتنا الدول الصديقة التي تعطينا قروضاً. ازداد غَضَبُ الذي تحت حتى أنه بدأ بالصراخ:

- سبب تشجيع تلك الدول لعدم لتكاثرنا مختلف. إنهم يخافون لو تزايدنا أن نجد في اليسارية طريقاً للخلاص. إنهم يعطوننا حتى لانصبح يساريين. ويقولون لنا حددوا النسل حتى يبيعونا آلات ومواد صناعية أدوية تحديد النسل.

جيد لو قطع كلامه هنا. لكن لم يستطع أن يمسك نفسه فصاح قائلاً:

- أفهمت يا حمار ابن الحمار.

خفت أن تبدأ خناقة كبيرة، ولكني هَدأت عندما تذكرت أننا أموات. والأموات لا يتخانقون.

أقفل حديثنا عندما سمعنا لحناً جنائزياً من الأعلى. قال الرجل الذي تحتي:

- هذا اللحن الجنائزي (لشوبان) الله أعلم كم جوقة موسيقية تعزف هذا اللحن في الدنيا في هذه اللحظة، وبالتالي يعذبون روح شوبان. لماذا لم يلحن شوبان لحناً راقصاً بدلاً من هذا ليعزف في جنازة أي شهير في هذه الدنيا...

كان اللحن يبتعد عنا. من الواضح أن الجنازة تتجه إلى الطرف الآخر حيث القبور الخاصة. أما المكان المدفونيين فيه نحن يشابه أحياء الأكواخ... ليس لقبورنا شواهد. تلال صغيرة من التراب، تتوزع مع الأيام. تدق فوق هذه الكومات الصغيرة أحياناً قطعة خشب مكتوب عليها بخط متعرج هوية الميت...

الموت ليس خلاصاً. لننتظر ما الذي سيقع على رؤوسنا سأكتب لك حتى أغطي مقدار السلفة التي أخذتها من مديري يا عزيزتي ذبابة الحمار. أتركك بخير.

حمار ميت

الرسالة الثانية والعشرون

الحمار الميت يحكي عن وصوله إلى الدار الآخرة

عزيزة الروح ذبابة الحمار:

تابعت طريقي حتى وصلت إلى المكان الذي لا عودة فيه لحي. كانت ثمة لوحة معلقة فوق مكان قطع التذاكر كتب عليها "لا تباع بطاقات العودة" أيذهب الإنسان في طريق لا عودة فيه! لا يدخل! إن استطاع، ألم ندخل طريقاً لا عودة فيه منذ ولادتنا؟ كنت سأبحث عن طرق أخرى قبل دخولي في هذا الطريق الذي لا عودة منه، ولكن لم أجد مخرجاً من المكان الواسع الذي أنا فيه إلا طريقاً كتب في أوله (اتجاه مفرد) كتب تحتها من أجل أن يفهم غير الأتراك (ONE WAY). يا ذبابة الحمار، أنا أكره كل الطرق المفردة... ولكن ما الذي أستطيع فعله؟

وقف الأموات في الدور أمام شباك التذاكر. أنا أخذت دوري. كان خلف الشباك ملك أشقر. لوحت بيدي فإذا بالملك فتاة أعرفها. ستظنين - كما كل مرة - أنني أكذب، صدقي أنني صادق... كنت أعرف الفتاة من الحياة. كانت (ملك) حقيقة. يعني كان اسمها ملك... عملت طوال حياتها قاطعة تذاكر. لا أدري متى ماتت، ولكنها أصبحت شابة. لشدة ما لوحت لها بيدي، بينما كنت أظن أنها ستدعونني بابتسامة، ولكنها أحنت رأسها بعبوس لا يليق بالملائكة. فصحت لها مستنداً إلى علاقتنا الصميمية في الدنيا:

- ملك.

هز المكان صوتاً، يقول:

- اصح لنفسك! عد إلى حديتك! لا تتمايع!

لم أر صاحب الصوت كأنه يـأتي مـن مكـبر صـوت فـوق الغيـوم. كـان يقترب دوري ببطء. بدأت أرصد بدقة كل ما يفعلـه مـن كـان أمـامي. كـانت ملكتنا تهمس لمن يأتي دوره بشيء كأنه سـؤال وحسـب الجـواب تعطيـه ورقـة ملونة. هذه الأوراق، تذاكر. كان يذكر الرجل الواقف تحت لوحة "اتجاه مفـرد" بصوت عال اسم المكان الذي سيذهب إليه حامل البطاقة وحسب لون بطاقته:

- موقع أول.
- درجة ممتازة.
- مقعد ممتاز.
- (بلكون)
- (صالة)
- درجة شرف ممتازة.

لم أكن أسمع ما كانت تهمس ملك بأذن من يأتي دوره.

أتاني الدور قلت:

- ملك، ألم تعرفيني؟

عملت نفسها لم تسمع، وهمست لي:

- بطاقتكم.
- أية بطاقة؟
- أليس معكم بطاقة توصية.

تفوه، حتى هنا يوجد توصية؟ هنا توجد الواسطة؟ مستحيل.

بعد أن سألتني عن اسمي وكنيتي قالت لي:

- انتظروا قليلاً.

ضغطت على زر. كل شيء على الكهرباء. لحظة ضغطها على الزر، **أتى** **أمامها** ملف ضخم يتحرك على سكة. قالت:

- ملفكم ضخم.

مطبوع فوق الملف هلالين أحمرين وخاتم "سري جداً".

فتحت الملف. كانت وهي تقرأ تقاريره وتنظر في صوره، تصدر صوتاً:

- هم!... هذا!... أووو هذه!... ياااه!... هو هو!......... واخ!...

قالت لي وكأنها لا تعرفني:

- أهذا أنتم؟

- نعم أنا؟

ضغطت على زر مرة أخرى. ظهر بجانبها أحد ملائكة جهنم. قالت له:

- خذوه إلى غرفة التحقيق! انتبهوا مجرم خطير...

أمسكني من ذراعي وكأني سأهرب. وكأن الهرب ممكن هنا. ودفعني داخل باب يفتح من نفسه. التقطت معصمي ذراعان آليتن مثبتتان في الجدار نهايتهما مثل الكماشة. قلت:

- من أنت؟

أتاني الصوت الغليظ ذاته:

- يد العدالة.

قلت:

- هنا أيضاً، يا هوه...

أجاب الصوت المعدني:

- يد العدالة طويلة. ليس للمقبرة فقط، بل حتى قعر جهنم.

قلت لنفسي "وهل الوصول إلى المقبرة صعب؟ لنصل ولنر." ولكن أي "**قلت**" هذه. في الحقيقة لم أفتح فمي و لم أقل شيئاً.

لا أدري لماذا لا تصل يد العدالة هذه كماشتها القوية لأصحاب الالتماس والواسطة بل تصل للضعفاء مثلي.

ثمة آخرون في الصالة. جلت بنظري لعلي أجد أحد معارفي، فلم أجد. هناك مدخل لمكان آخر كتب فوقه "غرفة التحقيق" على يمين الباب بائعة معصوبة العينين وفي يدها ميزان. المرأة واقفة وتنادي لجلب الزبائن:

- تعال اختر، اختر واشترِ... اختر الذي يعجبك واشترِ... الفرجة ببلاش...

قلت لأحدهم وكان بجانبي:

- عفوكم، أتعرفون هذه المرأة؟

قال:

- إلهة العدالة.

- لماذا هي معصوبة العينين؟

- لكي لا تظلم أحداً... إنها تبقى امرأة، عصبوا عينيها حتى إذا ما مثل أمامها شاب متهم وسيم لا يرقّ قلبها له وتخفف حكمه...

- ما دام هكذا ليسلموا ميزان العدالة لذكر.

- ماذا يحدث لو أتت فتاة جميلة متهمة أمام الذكر؟

شكرت الرجل على تلك المعلومات. لقد تعلّم الكثير هنا كونه ينتظر التحقيق منذ فترة طويلة جداً.

إلهة العدالة تنادي بشكل مستمر وكأنها في سوق:

- لا غش ولا (أونطه)... اختر وخذ، اختر وخذ.

سألت الرجل الذي تعرفت عليه:

- هذه آلهة العدالة ياه.. تكلف محامين للمتهمين لتأخذ العدالة مجراها.

- إنها تنادي اختر وخذ!!؟

- لكل محام حسب نقوده... إذا كان معك الكثير، توكل لك برفيسور حقوق مشهور... أو أحد وزراء العدل السابقين... إذا كانت نقودك قليلة، تكلف أحد المحامين الشباب، من الذين ينبت زغبهم حديثاً.

- إذا كان لا يوجد معي نقود؟

- يبقى مصيرك بيد الله...

- تقصد احترقنا..

أدهشتني حادثة رأيتها. كان ثمة رجل ضعيف محني الظهر قليلاً ذو لحية مخروطية، يقترب من خلف إلهة العدالة ويرفع ثوبها الحريري الطويل وينظر إلى ما تحته. كان يخرج رأسه لفترة، ويدخله مرة أخرى. كانت إلهة العدل الماسكة للميزان والمنادية للزبائن تضرب بيدها. محاولة كشه كما يُكش الذباب أحياناً، ثم تضرب بيدها على مؤخرتها أحياناً أخرى.

سألت:

- يا سيد ، من هذا الذي يدخل برأسه تحت ثوب الإلهة بين الفترة والأخرى؟

- هاااا، ذاك؟ مخلوق سافل عديم التربية والشرف... الشيطان، ألم تعرفه...

- لماذا يدخل رأسه تحت ثوب المرأة المسكينة؟

- ليتفرَّج على مؤخرتها... وعندما يتمادى تضربه بيدها.

- إلى أين يصل عندما يتمادى...

- إلى الطريق المفرد.

ثمة ملك يقوم بمهمة المنادي. ينادي أسماء من يأتي دورهم للتحقيق. ليس ثمة من يتحمل الأصوات الآتية من الداخل، أصوات تخمش الآذان وتمزق القلب.

- آآآخ، احترقت.

- كفى، لا تضربني يا أخي... انتهيـ......ت، انتهـ......ت.
- (أبوس رجلك)...
- ... أنا قلت كل شيء... أنا عملت كل شيء.
- كرمى لله!... ارحموني كرمى لله... اسمعني يا ربي، اسمعني...

كان لا يُجاب على هذه النداءات، ولكن مكان الجواب كان يسمع أصوات "طاق، طاق... شاق!... طاق... شاق.." كانوا يجيبون على المتوسل لله بـ "الله؟ الله في الخزانة، الله على ذاك الرف...".

- تفوه!! استغفرك يا رب... لو سمعتم الله لـ...... أمهاتهم! أنه يسمعهم بالتأكيد...

قال الرجل الذي تعرفت عليه:

- إذا كان على السماع فهو يسمع. لكنه لا يفعل شيئاً، لأن الذين يديرون التحقيق هم رجاله.

سألت الرجل:

- عفواً، ما الذي يجري في الداخل يا ترى؟

قال:

- تتحقق العدالة الإلهية...

فكرت أن "عدالة الشيطان الذي يدخل رأسه تحت ثوب المرأة المعصوبة العينين التي تزين العدالة هي هكذا" لخوفي لم أخرج صوتي.

سألته:

- سيدي، ما هي مهنتكم في حياتكم.
- منتج جنسي...
- لم أفهم ماذا يعني هذا. وظيفة رفيعة على ما يبدو، أي وزارة تتبع؟
- لنا اصبع في كل الوزارات.

- جميل جداً... يعني قطاع عام أم خاص.

- كيف لا تعرفون النتج الجنسي؟ انه قطاع خاص ولكن له تأثيره في كل مكان. يعني سمسار الحب ويسمى أحياناً تاجر الرقيق الأبيض، أما الطبقات الاجتماعية الدنيا فتسميه قواداً...

- يعني ما يسميه عامة الناس (عَرَصه)

ضحك. فهمت عمله. حينها صاح المنادي الاسم الكامل لتاجر الرقيق الأبيض وأدخل غرفة التحقيق. بعد فترة قصيرة سمعنا صوت العدالة الإلهية المسموع من كل مكان:

" لحظة ولادتك في مشفى التوليد أتى طفل آخر إلى الدنيا. نتيجة خطأ في غرفة الولادة أعطوا الطفل الآخر لأمك وأنت لأم الطفل ذاك. لهذا عاش الطفل الثاني ما كتب على جبينك وعشت ما كتب جبينه. بينما كان سيصبح الآخر قواداً وتصبح أنت رجلاً عظيماً، أصبحت أنت قواداً مكانه وهو رجل عظيم مكانك. بعد أن عشت خمسة وستين عاماً مظلوماً، ستأخذ العدالة مجراها."

خرج تاجر الرقيق الأبيض من عند قاضي التحقيق. بالرغم من أنه يؤخذ إلى الجنة كان عابس الوجه كأنه يذهب إلى جهنم... قلت له بينما كان ماراً أمامي:

- مبروك...

قال وهو يرفع يديه إلى الأعلى:

- ما هذه العدالة التي رحت ضحيتها يا هوه، أليس من الممكن أن تتحقق دون أن أعمل قواداً أربعين عاماً.

قال أحدهم:

- حظك كويس إنك مت مبكراً. ما كنت ستفعل لو عشت تسعين عاماً حتى تتحقق هذه العدالة...

مشى تاجر الرقيق الأبيض ذاهباً إلى الجنة.

سمعت صوتاً إثره "لا اعتراض على حكمه."

الملك المنادي:

- الحمار الميـ.....ت!

أدخلوني غرفة التحقيق.

كتب على اللوحة المعلقة خلف قاضي التحقيق والمؤطّرة بماء الذهب:

" العدل أساس المُلْكْ "

بعد أن سألني قاضي التحقيق عن اسمي، كنيتي، اسم والدي، قال:

- أين ولدت؟

- في السرير على ما أظن...

بعد جوابي على الأسئلة التقليدية، قال:

- ما سبب مجيئك إلى المقبرة.

لخبطني هذا السؤال، لأنه مفاجئ... لا أستطيع القول: "السبب سياحي...." قلت:

- بسبب اختياري الحرية...

- جريمتك التبول مقابل الشمس.

- لم تكن نيتي سيئة. لم أدر ظهري لكي لا أعمل حقارة.

- ما عملك؟

جواب هذا السؤال صعب.

- الكتابة عندما أجد الفرصة...

- ماذا تكتب؟

أردت الغمغمة على هذا السؤال فقلت:
- من هذا وذاك.
طلب من كاتبة المحكمة:
- اكتبي يا ابنتي: "ما يفهم مِن قول المتهم من هذا وذاك حسب ما اعترف وأقر......" قطعت كلامه قائلاً:
- أقصد عن الهواء أو الماء.
- أكتبي يا ابنتي: "قصد المتهم من قوله الهواء والماء، قضايا الدولة الكبرى، كقضية وحدتنا الداخلية التي نعيشها أفضل من أي وقت مضى...
- سيدي، أنا لم أكتب هذا... كنت سأكتب.
- إن كتبت، أو نويت أن تكتب، واحد... هل نويت أم لم تنو؟
- إذا كان على النية فنويت. ولكن نويت الكتابة عن الهواء والماء...
- ماشي... ماذا يعني الهواء، يعني تجارتنا... الماء؟ اقتصادنا...
- ولكن أنا قصدت الأشياء التافهة بالهواء...
- الأشياء التافهة، أليس كذلك؟ يعني صناعتنا التجميعية... هوه هوه، تكتب من هذا وذاك، عن الهواء والماء، الأشياء التافهة... ماذا تكتب أيضا؟
- لا أكتب يا سيدي.
- تكتب، تكتب... أنت لا تقف عن الكتابة، قل ماذا تكتب؟
- أكتب رسائل.
بعد أن تهامس قاضي التحقيق ومن كان بجانبه. أخبروني بأنهم سيرسلوني إلى قعر جهنم
سألني قاضي التحقيق:
- ما قولك؟
- أقول با لله؟

- لا يمكن لك أن تتكلم بشكل تخل فيه حرمة المحكمة. تكلم بالقانون...

- يعني أرادني أن أتكلم الجمل الطويلة والكلمات الأكثر غرابة بشكل غير مفهوم. بدأت الكلام مما علق بذهني من محاكماتي في الدنيا.

- أتوجه لمقام هيئتكم مع تقديري قانون الدار الآخرة الجزائي من مادة المحاكمة السرية فقرة...

- صاح بي القاضي:

- اخرس!

خرست ثم صحت:

- يحيا العدل!

وهكذا يا ذبابة الحمار الحبيبة، نحن هكذا في قضايا كهذه، يعني كيفما أنتم هناك نحن مثلكم... كيف حالكم؟ ما هي أخباركم؟ هل مر الزبال من حيّنا منذ العيد الماضي؟ هل المياه مقطوعة حتى الآن؟ ألا تزال الكهرباء كما كانت عندما كنت هناك تقطع أربع - خمس مرات في اليوم، والضوء يُرفف العين؟ ألا تزال مياه المجارير تطوف وتحوّم في الأزقة، ووزير الصحة يقول: "اتخذت الإجراءات اللازمة لمنع انتشار الأمراض السارية؟" وهل لا يزال رئيس الوزراء يعطي وعداً للناس بأن سعر المادة الفلانية سوف لا يرتفع، وبالتالي إشارة يبشر فيها تجار السوق السوداء ليجمعوا البضاعة ويكسبوا منها المليارات؟

أقبلك بشوق من بين عينيك ومن ابرتك يا ذبابة الحمار الحبيبة.

حمار ميت

الرسالة الثالثة والعشرون

(الرسالة الأخيرة للحمار الميت الذي لا يريد أن يبقى مديناً)

ذبابة الحمار الحبيبة جداً،

لم يجدوا مكاناً مناسباً ليضعوني فيه، جهنم قليلة بالنسبة للذنوب التي اقترفتها قالوا: "لنضعه في قعر جهنم ولنر ماذا سنجد له مستقبلاً."

كانوا يخيفوننا بجهنم أثناء حياتنا، أليس كذلك؟ لكنها ليست مخيفة إلى الحد الذي صوّروه لنا، أما كانوا يقولون، جهنم ألسنة لهب، ثم تقف ليصبح كل مكان متجمداً. نعم إنها كذلك... كيف كنت أعيش في قبو يشتعل حراً، صيفاً، وكالثلاجة شتاءً. هنا ما يشابهه تماماً. كأنني لم أمت بل أكمل حياتي السابقة. تعرفين أن الهواء لم يكن يدخل إلى القبو الذي نعيش فيه أبداً. لكن هنا يدخل الهواء كلما فتح الباب لدخول مذنب جديد. ما أريدك أن تفهميه أن المحيط الجديد في جهنم لم يؤثر فيّ مطلقاً بل أفادني... كنت دائماً أكرر: لم أستطع الذهاب في حياتي ولو مرة إلى المصيف. كأنني أتيت إلى المصيف وعلاوة على ذلك لا يوجد هنا أي ذباب، أو بعوض ولا ضجيج مذياع رفعوا صوته الجيران ولا صراخ الأولاد أو مناداة الباعة المتجولين ولا أصوات المزامير أو السيارات ولا صوت سيارات الشرطة... لا يوجد هنا أي نوع من أدوات التعذيب، مثل التلفزيون، الراديو، الجرائد...

جمدت أحشائي من شدة برد الشتاء في الدنيا ولكني الآن في جهنم، بدأتُ قليلاً أتحرك. كان زبانية جهنم يدهشون عندما أقول:

- دخيلكم أضرموا النار أكثر...

ما كانوا يقولونه أن الناس في جهنم مكدسون فوق بعضهم، بعضهم من يصرخ وبعضهم من يبكي ومنهم من يتوسل، لا يهمني مطلقاً. رغم هذا صدقي أن جهنم أقل ازدحاماً وضجيجاً من بيتنا. كما تعلمين كنا نعيش فيه تسعة أشخاص. لم يكدسوا الناس بهذا الشكل في جهنم لأنه عمل لا إنساني.

ذبابة الحمار الحبيبة: لا أستطيع أن أعد لك كل مزايا جهنم الجميلة. لم نعرف أن لأمثالنا خلاصاً في ذهابهم إلى جهنم منذ زمن بعيد. كدت أن أنسى أن أهم مزايا جهنم عدم وجود مشاكل المؤجر والمستأجر...

لم أستطع البقاء في بيت لمدة ستة أشهر في حياتي، بسبب عدم استطاعتي دفع الأجرة. كان موظفو الحجز يبيعون بعض قطع الأثاث مقابل الإيجار ويرمون الباقي وإيانا في الشارع. لقد أصبح رمينا وأشياؤنا في الشارع من تقاليد حياتنا. وأولادنا كانوا يمرحون كثيراً يوم الحجز وينتظرونه بالدقائق... كان يوم الحجز بالنسبة لهم عيداً... كانت تنثر في الشارع الصحون المكسرة، الزجاجات، المقاعد الخشبية، التنكات الصدئة... والأولاد يقفزون ويلعبون بينها... كان عندنا راديو قديم، يهجم عليه - لحجزه - كل من يدخل بيتنا من موظفي حجز وشرطة، لأن الفرش واللحف لا تحجز لم يجدوا في بيتنا ما يحجزونه سوى الراديو. كان الهجوم على الراديو، هو أول عمل لأي موظف حجز يدخل بيتنا. موظفو الحجز أناس بطبيعة غريبة. كانوا ينصبون أنفسهم أعداء باسم المدين... حجز الراديو أكثر من خمس عشرة مرة ثم عاد لنا. فكرت، فوجدت أن موظفي الحجز مهتمون به كثيراً فأخرجت ما كان بداخله وملأته بالخردوات. أتى موظفو الحجز والشرطة مرة أخرى. لو رأيتهم كيف هجموا على الصندوق ظناً منهم أنه راديو. وهكذا خلصنا من الدين والراديو معاً...

لا يوجد هنا لا تنفيذ حجز ولا أجرة ولا صاحب دَيْن...

للأسف لم تستمر راحتي الجهنمية هذه كثيراً. رفع زبانية جهنم تقريراً إلى الجهات العليا حول سعادتي، وراحتي هناك. دُقِقَ مَلفّي. أصدر قرار: "إن حياته في جهنم تجري طبيعية جداً كونه لا يوجد عذاب لم يتعذبه أو ألم لم يتألمه في حياته. لأنه متعود على كافة أنواع الهموم والآلام والمرارات فجهنم بالنسبة له، مصيف رأينا - من أجل تعذيبه - أن ندخله الجنة."

لأشرح لك كيف الجنة هذه: أتذكرين - قبل الانتخابات - كيف كان كل حزب من أحزاب المعارضة يصف الحالة التي سيجعل بها البلد. الجنة هي مكان كهذا الذي يصفون...

لقد أعطوا أجمل أماكن الجنة لمن عمل أكبر خير في حياته. لم أر كل الجنة، ولكن رأيت في القسم الذي تجولت فيه قصراً لا أستطيع وصف جماله... يماثل تماماً الأمكنة التي توصف وتوصف ثم يقال إنها مثل الجنة... القصر وسط حديقة كبيرة جداً، لكن ممنوع الدخول. ثمة لوحة فوق الباب ذي الأرفتين كتب عليها "انتبه! يوجد كلب" لا ضرورة لتلك اللوحة لأن نباح الكلاب مسموع. نظرت إلى الحديقة من تلة عالية: كما وصف لنا تماماً. الجسر يجري في كل مكان. (ماركة) كوثر. امثلي واشربي... تحت كل شجرة مكان للعشاق... يد في السمن وأخرى في العسل... هناك كل ما تشتهينه.

سألت الأقدم مني عن اسم ذاك الحي، قيل لي "جنة العلا"... يعيش في منطقة جنة العلا هذه من عمل صالحاً أكثر. كما يعيش أكبر نجوم هوليود في منطقة (بافيرلي هِل). استفسرت عن نوع العمل الصالح الذي قام به صاحب الفيلا. كان ساكنها في حياته أحد رجال الصناعة الأغنياء جداً. أنشأ مشفى ضخماً لمعالجة مرضى السل. مقابل هذا أعطي أجمل قطعة أرض في الجنة.

كما ترين يا ذبابة الحمار، يجب أن يعمل الإنسان خيراً في حياته لكي يدخل الجنة، ولكي يعمل خيراً يجب أن يكون غنياً.

سألت عن الرجل، قيل لي إنه كان يملك عدداً من المصانع، يعمل فيها آلاف العمال. كان يصاب العدد الأكبر من عمال مصانعه بالسل ويموتون. حزن كبير. لطيبة قلبه، وليكون عماله في حالة أحسن، أنشأ لهم مشفى سل. وهل هناك مثل عمل الخير. انظري كم هو طيب القلب ذاك الرجل. كان يُمَرِّض عماله بالسل أولاً ثم يداويهم...

أعطيت مفارز الأراضي جانب البحر لأصحاب الأعمال الخيرية الكثيرة. لا أحد يستطيع الدخول إلى البحر سواهم. كتبوا في جنة الله لوحات "ممنوع الدخول إلى البحر من هنا" ووضعوا لأنفسهم قانوناً خاصاً.

كما ترين يا ذبابة الحمار الحبيبة، لا فرق بين الجنة هذه وجنة وطننا.

حادثت هذا الصباح أحد أبناء البلد الذين هاجروا إلى الجنة قبلي. ولأنه ميت منذ فترة طويلة، سألني:

- ماذا هناك، في البلد؟

قلت:

- لاشيء.

- يعني كما كانت منذ زمن. لم يتغير شيء.

قلت:

- هناك بعض الأشياء القليلة تغيرت.

- الحمّام، هل تغير الحمّام؟

- لا يا سيدي، الحمّام كما هو، القديمة ذاتها... لا يهدمونها لأنه تحمل قيمة تاريخية ولا يرممونها لأنهم لا يملكون النقود. ينتظرون أن تهدم من نفسها.

- الطاسات؟

- الطاسات أيضاً كما هي، لم تتغيَّر. يبيّضونها بين الفترة والأخرى.

- من يبيّضها؟

- أي من كان..
- ماذا عن القُيام؟
- يتغيرون من فترة لأخرى... ولكن القادم يجعلنا نفتقد للذاهب.
- من أي جهة؟
- باختصار يسلخون جلدنا...
- ماذا يعمل بكري مصطفى* ؟

عندها تلفّت يميناً ثم يساراً، قال:

- لا تخف، لا تخف. نحن هنا أحرار. نستطيع أن نتكلم بما نريد... ماذا يعمل بكري مصطفى؟

قال عندما طأطأت رأسي:

- فهمت، فهمت... لا ضرورة للشرح أكثر...

أختي الحبيبة ذبابة الحمار، أظن أنني سأكون بهذه الرسالة دفعت ديني كاملاً لمديري. لهذا ستكون هذه رسالتي الأخيرة. على أمل اللقاء في أحد الأيام، أُقبّل عينيك.

حمار ميت

---

* اسم، غدا رمزاً للإنسان الشقي. (م)



الحمار الميت

عزيز نيسين... كاتب من أصل تركي، تُرجمت أعماله إلى أغلب اللغات الحية، ولعل أهم ما يميز هذا الكاتب العظيم، أنه استطاع أن يُلبس المأساة أثواب الكوميديا، لتصبح أعمق تأثيراً، وأبلغ في التعبير عن أحوال انسان العالم الثالث...

الناشـــر

السعر ١٥٠ ل.س



